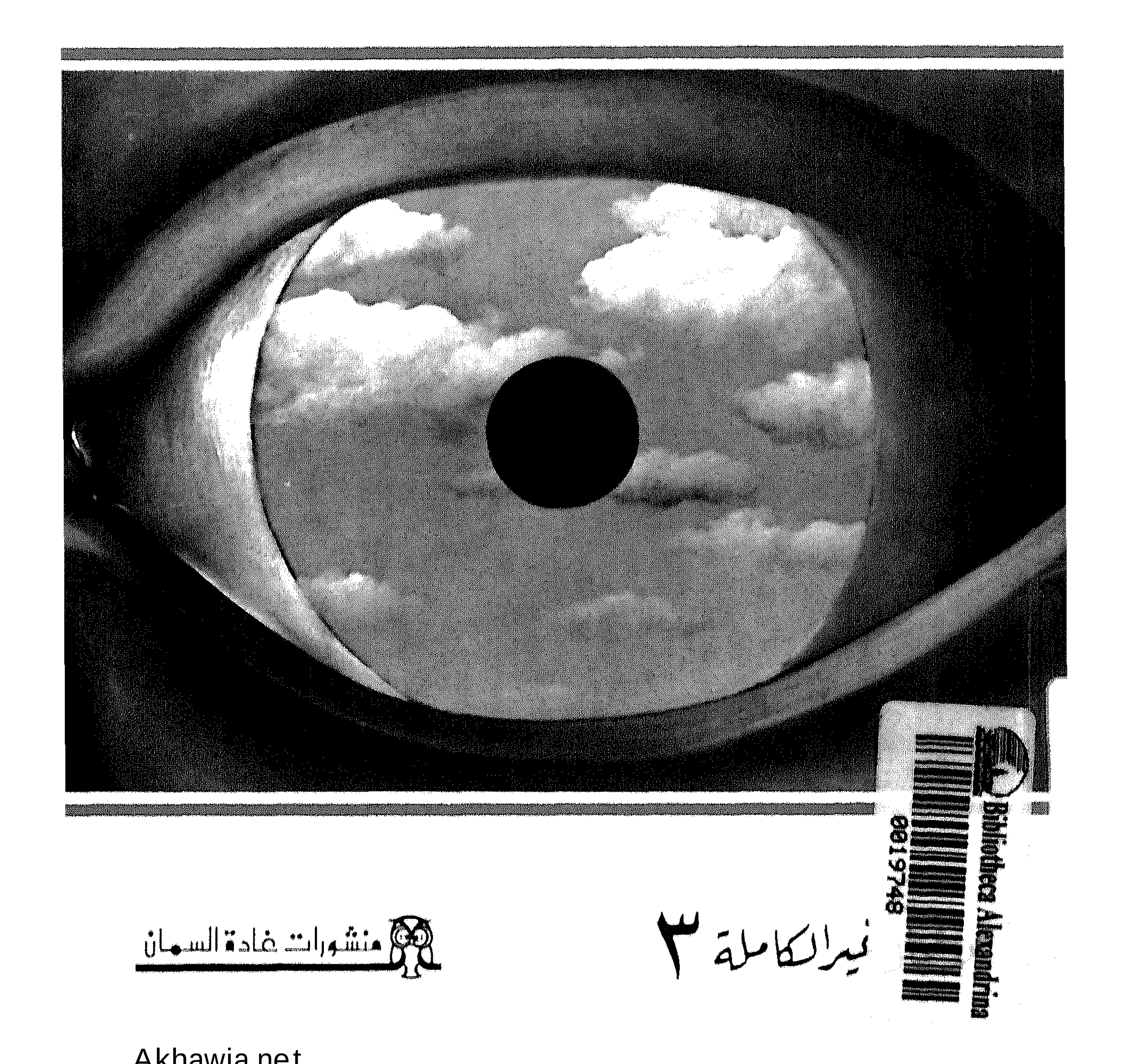
غادة السمّان

السّباحة في بحيرة الشيطان



ـير الكاملة ٣

منشورات غادة السمان

مصارحة *

١ ـ هذه الكتابات كان من المفترض أن تنشر بعد موتي إذا كان هنالك من يهمه ذلك .
كان من المفترض أن تبقى مجرد قصاصات صحفية عتيقة ومخطوطات لم تنشر في حينها لأسباب مختلفة .

ولكنها احترقت في الحرب اللبنانية الأولى ١٩٧٤ ـ ١٩٧٦ واستهلكت مني ومن أصدقائي كثيراً من الجهد والوقت وقليلاً من المال حتى استطعت استعادة أكثرها .

واليوم ، وأنا أعيش في مدينة تتهددها (حرب ما) ثانية أشعر أن من حقي الحيلولة دون احتراق أوراقي مرة أخرى . . . ولذا قررت نشرها ، ليس احساساً مني بأهميتها ـ وهي قد تكون أو لا تكون كذلك ـ ولكن بالدرجة الأولى لأنني لا أريد لها أن تحترق ! . . فهي جزء من ماضيّ الكتابي ، وهي ككل ماض لا يمكن إلغاؤه كما انه لا يمكن تبنيّه كلية . . وبطبعها ، سيكون لي في بيت كل قارىء عربي من قرائي ملجأ يحمي حروفي من الإبادة . . وهو احساس جميل وحميم يغمرني ويسعدني .

٢ ـ ليس هنالك فنان يرضى عن أعماله القديمة ـ إلا فيما ندر ـ ولست من هذه الندرة .
أنا راضية عن محتويات هذه السلسلة ضمن الإطار الزمني الذي كتبت فيه . لحظة كتبتها كنت باخلاص أشعر بأنه ليس بوسعي أفضل مما فعلت .

٣ ـ اعتقد أن العمل الفني كالخطيئة ، لا يمكن محو إثمها بعد ارتكابها ، وكالرصاصة لا يمكن استردادها بعد إطلاقها . ولذا فإنني لم أبدل شيئاً يذكر في القصص التي سبق نشرها . فالقصة حين تُكتب تخرج من يد الفنان مرة ، وحين تُنشر ، تخرج من يده مرتين والى الأبد . هذا بالإضافة الى أنني قد لا أرضى في غدي عما أرضى عنه في يومي ، وهذا

---

* هذه المصارحة سبق نشرها في الجزء الأول من « الأعمال غير الكاملة » وكان اسمه « زمن الحب الآخر ـ قصص ومسرحية » . وأعيد في هذا الجزء الثالث نشر بعض مقاطعها ، بسبب منع كتاب « زمن الحب الآخر » في بعض الأقطار ، وذلك لتتاح للقارىء الذي لم يطلع عليها ، فرصة قراءة هذا الايضاح حول ماهية سلسلة « الأعمال غير الكاملة » .

معناه - لو أعدت باستمرار كتابة كل ما لا أرضى عنه - أن أقوم بإصدار طبعة يومية جديدة لكتبي (!) وهو أمر مستحيل وخارج عن طاقة البشر .

٤ - « الأعمال غير الكاملة » هو الأسم الذي قررت إطلاقه على هذه السلسلة بدلاً من عبارة « الأعمال الكاملة » المتعارف عليها .

فهذه الأعمال ليست « كاملة » ما دامت حصيلة عمل بشري - مهما كان مبدعاً - هذا أولاً .

وهي ليست « كاملة » لأنني لن أنشر كل حرف كتبته بل كل حرف أتصور أنه يستحق حداً أدنى من الحرص - أي مختارات من أعمالي - (ما عدا أعمالي القصصية التي ضمها الجزء الأول من هذه السلسلة وكانت بعنوان « زمن الحب الآخر » ، والتي نشرتها كلها لأن بداياتي تسهم في إلقاء الضوء على أعمالي الحالية والمستقبلية ، ولأن فعاليتي الأساسية تكمن - كما أتصور - في كتابة القصة) .

ثم أن هذه السلسلة هي بحق « الأعمال غير الكاملة » لأنني ما زلت أنبض توقاً الى كتابة الأفضل ، ويخيل إليّ أن عبارة « الأعمال الكاملة » تنطبق على الذين اكتملت حياتهم بالموت ، وذلك حظ لم يباركني بعد ! . . .

غادة السمان

الساعة ٣٧, ٥ فجر ٧ - ٩ - ٧٨

إهداء

أهدي هذا الكتاب ،
الى ذلـك الحب المفترس ،
الحب الأكثر ضراوة في عمري . . .
وللعاشق الذي لم أفلح أبداً في التخلص منه ، أو ترويضه
ـ ربما لأنني لم أرغب أبداً في ذلك حقاً ـ . . .
الى حبيبي الشاعر الجميل ، الطفولي الرؤيا ،
النقي الوجدان ، الشيطاني التسلط . . .
الذي يدس بوجهه في منعطفات القلب البشري ،
وزوايا قلعة الدماغ المغلقة ،
والساحات السرية للروح ، المشرعة للرياح الغامضة . . .
محاولاً أن يرى ، دونما أفكار مسبقة ،
وأن يفهم ، دونم تحامل سلفي أو قبول سلفي ،
وأن ينصت الى إيقاع الحقيقة وكهاربها أينما وجدت ،
بتواضع كوني حنون ، وطموح إنساني شرس . . .
الى حبيبي المفترس
ـ الذي يسبح أحياناً في بحيرة الشيطان ـ
واسمه : الفضول
أهدي هذه السطور . .
فلولاه لما كانت ،
ولولاه لظللنا جميعاً كائنات داجنة
في اسطبل الآراء المتوارثة السائدة
والمفهوم المحنط لمهمة (العقل) ! . . .

غادة

السباحة في بحيرة الشيطان

سأمضي الى القاع هناك ، حيث موت الصور وحياتها . . لكي أعرف !

ـ جورج شحادة

يتألف دماغ الانسان وجسده من الفسيفساء الكونية نفسها ، التي تتركب منها غيوم كواكب السحب الكونية ، السابحة في اللانهاية .

ـ لينكولن بارنت ـ

حينما يصير الانسان قادراً على تبديل « درجة الوعي » لديه بالعالم الخارجي ، يصير قادراً على التقاط محطات كونية جديدة ، تماماً كما يحدث حين تبدل إبرة المذياع أو موجته . يقدر الانسان على ذلك بواسطة التأمل « اليوغي » ، والتنويم المغناطيسي ، والمخدرات ، والصلاة العميقة .

ـ مارلين فرجسون ـ

« علينا أن نأكل ثانية من (شجرة المعرفة) ، وذلك كي نسقط من الخطيئة الى البراءة . . . »

ـ نورمان بروان ـ

السبت ٧/ ١٢/ ١٩٧٤

السباحة في بحيرة الشيطان

في السادسة فجراً بدأت (رحلتي) . . بالضبط في السادسة وعشر دقائق . ابتلعت ربع قرص من المخدر الشهير«L. S. D» ـ ال . اس . دي . انه ليس قرصاً تماماً . بقعة حجمها يعادل حجم قرص أسبرو ، بل أصغر قليلا . . بالمقص قصصنا القرص الى أربعة أرباع . . تناول كل منا ربعاً . لدينا حوالي (١٢ قرصاً) مدروزة على شريط من الورق وتشبه كثيراً بكرة مسدسات الاطفال الورقية ، التي عليها بقع صغيرة من البارود .

سألت : هل يكفي ما لدينا من ال . اس . دي . لتخديرنا جيدا ؟ قال جريجوري الخبير وكاهن رحلتنا الى أرض الجنون : لدينا ما يكفي لسكان العمارة بأكملها . . . **(وكانت العمارة شاهقة شاهقة ، ونحن في الدور الاخير ـ ربما كان الثالث عشر ـ قررت : يجب أن أحاذر الطيران من الشرفة أو النوافذ ، فقد قرأت الكثير عن الذين طاروا منها بعد تناولهم لهذا المخدر ، وخذلتهم أجنحتهم)** . . .

حين وضعت الورقة المغموسة بالعقار على لساني شعرت بلذعة خفيفة جداً . . . سألتهم وقد امتصصت الورقة : هل أبصقها ؟ قالوا : ابتلعيها . كانت أكبر قليلاً من رأس القلم الذي أخط به هذه السطور . . .

***

افكر بصديقتي عايدة بحنان . كم تقلق لأجلي . إنها لا تعرف أين أنا . قلت لها انني مسافرة ولم أكن أكذب . (**مسافرة على طريقتي**) . اجراس خافتة في رأسي . قلبي يضرب أكثر من المعتاد والساعة ٦,٢٥ .

***

ابتلعت الربع الآخر من المخدر . الساعة السادسة والنصف ، ورأسي ثقيل ثقيل .

***

الفجر بدأ يطلع . . نصف السماء الى يساري تسلل اليه ضوء خفيف ، والنصف الآخر ما زال غارقاً في الظلام . . . الضياء ينتشر باستمرار مفترساً النصف المظلم ببطء

وبإمعان أكيد . . .

رمادية هي السماء الآن ، ذلك الرمادي خـفي التوهـج بضياء سري ، ولـولا بوق سيارة لقلت انه أول فجر في التاريخ . الانتعاش الفاحش في جسدي يؤكد لي ذلك . أم تراه المخدر ؟ . .

كل هذا الفراغ الشاسع يحدق بي من النافذة المفتوحة . أخرج الى الشرفة . . . الخيط الفاصل بين البحر والافق ما زال باهتـا . (سيكون يومـاً ماطـراً . ليتـه يكون يومـاً عاصفاً) . . .

أعود الى الغرفة ، وأترك الفراغ الشاسع يتابع تحديقه بي من النافذة .

أشعر بهدوء وسلام منتعش . لا ألم على الاطلاق . يضايقني فقط صوت (حنفية) ما مفتوحة ، تنقط ، تنقط . نزيف شريان ؟ . . بحثت في كل مكان . الحمام . المطبخ . لم أجد الحنفية وما زلت أسمع صوت القطرات . أم تراه نبضي ؟ ضربات قلبي ؟ نزفي ؟

البحر ساحر . الموج الأبيض عبثاً يتسلق شاطىء الأمان ، والموجة التي تـنجح في تسلق الشاطىء تجف وتموت . كي تعيش الأمـواج يجـب أن تظـل في حالـة اضطـراب وخفقان . ونحن كالامواج ، الاستقرار في الأمان يقتل شيئاً في داخلنا . . .

اسحب (فيش) الهاتف وأقطع الاتصال بالعالم الخارجي . يؤ يـذني انتوني . نار بدأت تشتعل في معدتي لكنها خافتة . رأسي يزداد ثقلاً .

للمرة الاولى ألحظ أن في الغرفة باباً صغيراً ، لم ألق اليه بالاً من قبل ، وربما تخيلته بابا لخزانة ما . ماذا خلف الباب ؟ استطيع ان أتخيل كوكباً آخر ، أو على الاقل مدينـة أخرى ، أم مجرد جثة محنطة ؟ . . جثتي أنا ؟ لن أدهش إذا وجدتها في الداخل ! . .

البحر أمامي . . . أتذكر شاطىء (الطابيات) في اللاذقية ، ذلك الشاطىء المرمي بعيداً عن البيوت . . . كان يعيش بالقرب منه أحد أقربائي ، وكنت ، ربما كنت أحبه ، لكنه لم يلحظ ذلك فقد كنت في العاشرة من عمري !

يغيظني في هذا الدفتر الـ (بلوك نوت) أن كل صفحة أقلبها تسقط من تلقاء نفسها . كأنها تموت حين أُتم كتابتها وتستنفد . فتح الباب . النسيم البارد يدخل . لا أشعر حالياً بأي شيء غير عادي ، الساعة السابعة وسأنهض (لأضع) موسيقى .

***

لا ادري لماذا تلح علي كلمات « شكسبير » عن الحياة :

« الحياة حلم عابر ،

حكاية يرويها أحمق
مليئة بالضجيج والغضب ،
وبلا معنى ! . . »
ما زلت في حالة هدوء تامة . بل عذبة ومسحورة . والسابعة والربع .
عطرت نفسي . كثيراً من العطر . سر به جريجوري . وانتعشت . أحس بنشاط جسدي مفاجىء . بالرغبة في الحركة والغناء والانتشار . . .
الموسيقى عذبة وأنا اطفأت سيجارتي وسعلت . انني في الحقيقة لا أحب التدخين ولا أدري لماذا أدخن !

***

أحس بقشعريرة تجتاح جسدي . لعل المخدر بدأ يجد طريقه الى أعصابي ليشلّ عملها اليومي الرتيب ، ويرشدها إلى وسيلة أخرى للعمل ، والى دروب منسية أو معطلة . . . ربما كان المجتمع هو الذي عطلها بحجة حماية (الجماعة) ، والناس في فجر التاريخ ربما كانوا يحسون في مواجهة العالم ـ وبشكل عفوي ـ ما نحسه الآن عبر المخدر . . . ربما كان كل فجر بالنسبة إليهم هو أول فجر في التاريخ . . .
ربما كانت الحيوانات ترى العالم باستمرار كما نراه حين نتناول نحن المخدرات . من يستطيع مثلا أن يعرف كيف يرى النسر الأرض وكيف ترى الحلزونة الكون ؟

***

أشعر بحس غامض بعدم الأمان . أغلقت باب الغرفة وأقفلته بالمفتاح ، وأحكمت إغلاق باب الشرفة . المغني يصرخ « اوه . . اوه » بصوت مذبوح ، والصدى في داخلي يتواتر ويستمر وتتراكم طبقاته بعضها فوق بعض ، وتتوالد دوائرها . . .
أشعر بالدوار ولن أستسلم . أشعر بالبرد الشديد وقد التصقت (بالشوفاج) . ما عدا ذلك كل شيء (عادي) حتى الآن والساعة ٧,٣٠ .

***

موجة حر . يعاودني الانتعاش النفسي البرعمي . جسدي أخلعه وأخلفه ورائي مكوماً على الأريكة ، وأنا واقفة خارجه اتأمل تفاصيله . لا يبدو لي كما أراه عادة في المرآة . يبدو جديدا بطريقة ما كأني أراه للمرة الاولى . يثير اهتمامي قليلا ثم يضجرني . أتركه ، وبخطوة واحدة فقط لم أخطها بعد ، أجد نفسي على الشاطىء ، (أركض أركض عارية وحرة وأصهل وأسلم نفسي للريح ورذاذ الماء وكل ما هو مجنون وحر وطليق في الطبيعة

مثلي . . . برق ، أتسلقه كغصن شجرة)

وجه جريجوري قريب من وجهي . أرى مساماته كما لو من خلف مكبر . يبدو حزيناً وهلعاً . له وجه إنسان يسقط في بئر عميقة بلا صراخ . . . أما أنا فبعيدة ، ما زلت أركض هناك وحيدة ، ألحظ أني وحيدة ، ذلك لا يرعبني - فقط يحزنني - لا يرعبني ان أكون وحيدة - بلى ، احيانا - لكنني غالباً استطيع السيطرة على ذلك .

***

خفيفة أطير وأرقص في الفضاء . وأقفز على سطوح الابنية المجاورة وأكسر أنتينات التلفزيونات وأقطع حبال الغسيل ، وأرى جسدي ما زال مكوماً على الاريكة في غاية الرزانة .

يعاودني البرد .

المطرب يغني « نحن في طريقنا الى القمر »

« نحن في طريقنا الى القمر

تعال معي ،

طر معي

انتش معي حتى النهاية

وانس مشاغلك

وطر معي ، أعلى ، أعلى ، أعلى . . . »

اغمضت عيني أنصت الى اللحن الفضائي ، وكففت عن الكتابة لأستمتع . لم أستمتع . لاحظت أن الأغنية معدة خصيصا لتناول الأسيد (ال . اس . دي .) وواضح ان الذي كتبها كان صاحياً وواعياً للمتطلبات التجارية لعشاق هذا المخدر . كرهت الاسطوانة . تمنيت لو كنت استمع الى بيتهوفن لأطير معه ، أو حتى إلى كارل أورف لاتسلل الى كهوفه .

تبدلت الأسطوانة . ربما لو كففت عن الكتابة لاستمتعت أكثر ولرحلت أبعد . إن مراقبة الحياة تفسد الاستمتاع الكلي بها لأنها تنقص من كثافة انغمارك بها . أتمنى أن أسلم نفسي كلية للتجربة ، ولكن ذلك الجنون في داخلي الذي اسمه الكتابة يلح عليّ باستمرار كي أسجل . . أسجل . . . (أسمع صوتي وأنا أضحك بصوت عال لأنني تذكرت تلك الحادثة : كنت مع صديقي وفجأة نسيته وأهملته وانحنيت على أوراقي لاسجل فكرة أعجبتني . غضب وقال لي ان ذلك اسوأ من سلوك الاجنبيات اللواتي يراقبن برنامجهن المفضل

في التلفزيون اثناء ممارسة الجنس ، واسوأ من سلوك الشبان الأوروبيين الباردين الذين ينامون احيانا في كاباريهات الستربتيز ويعلو شخيرهم بينما المتعرية تخلع آخر قطعة ثياب على جسدها الضجر . المهم انني تابعت كتابة الفكرة التي خطرت ببالي،وهجرني هو !) . .

***

بدأت ألحظ أن خطي صار سيئاً جداً . . . لا ريب في أن المخدر قد استولى علي نهائياً . تأكد لي ذلك حين نهضت لإحضار ماء من البراد . كنت أتمسك بالجدار ، وكان الجدار ينزلق الى الأسفل وكانت رحلة رهيبة من الغرفة الى المطبخ . . . كل شيء ينزلق من حولي . كل ما أمسكه يتساقط عني . العالم جبل رمل وأنا ذرة وكلنا نتساقط . . كلنا . . كرسي . ارتمي فوقه . أحس بشيء تحتي . أنهض . أجد رزمة (ربما كانت ثياباً قادمة من الكوّاء) وعلى الرزمة اسم الدكان : « برفكشن » أي (مصبغة الكمال) . لا ادري لماذا اضحكتني كلمة « الكمال » ! انفجرت أضحك بصوت عال مجنون. بدت لي كلمة « الكمال » نكتة هائلة . نسيت إلى أين كنت ذاهبة . جفاف فمي وحلقي ذكراني بأنني كنت في طريقي الى البراد . تابعت المشوار . تابع العالم انهياره ، والزلزال ، وضاق صدري وكل هذه الرمال والكتل الحجرية تسقط فوقي وعبثا أتنفس . خفت . كنت أدب على أربع وأنا عائدة الى الغرفة ، والزلزال مروع . هلع شديد يغمرني . أذكّر نفسي بأنني تحت تأثير المخدر وأن شيئاً لا يحدث فعلاً في الخارج . . . ولكن ، ما الفرق ؟ إنه يحدث ما دمت أحسه . لسنا في حاجة الى شهود أو إجماع الرأي العام ليقرروا أن شيئاً ما قد حدث لنا حقاً . لا يمكن جلب شهود على أحلامنا مثلا . إنها تقع لنا وكفى . . .

***

جسدي مرميّ على الارض كالخرقة . أشعر بحاجة الى الأنين . حلقي جاف . تذكرت أنني لم أستطع الوصول الى البراد . انتوني يدخل وفي يده زجاجة ماء وكأس . مبارك أنت يا انتوني ! عاجزة تماماً عن الحركة . السطر يتماوج ولم أعد ارى بوضوح ما أكتب لكنني سأتابع . للمرة الاولى في حياتي أعي نفسي مشلولة تماماً أمام مخدر ما ، أعني من الداخل مشلولة . عاجزة عن التحكم به أو توجيهه . وكل ما يحدثه من أثر هو مفاجىء بالنسبة إليّ . . من الخارج ما زلت « أنا » المتماسكة . كذب . لا شيء متماسكاً . كلنا نتماوج والغرفة مركب من الماء المتماوج ! لماذا لا يضعون في الجدران مقابض نتمسّك بها كما في القطارات ؟ لكن ما جدوى ذلك اذا كانت المقابض نفسها متماوجة وكان كل شيء عالما

من الفوضى الخافقة ؟ . .

* * *

ما زال جسدي مرمياً على الارض كالخرقة . أرتجف وأكافح كي لا أئن . (لا ادري ماذا دهى جريجوري . غادر الغرفة ولعله ينتحب في الغرفة المجاورة) . عاد حاملاً حراماً وفرشه على الارض فوق الموكيت وقال لي : الطقس بارد . تمددي فوقه . إنه انسان رقيق . . . كم أحب الرقة في هذا العالم الوحش المسكون بالقسوة ! . .

يصرخون . . يقولون أشياء وأشياء . . . لعل الكتابة وحدها تجعلني أحافظ على وعيي (وهذا شيء مؤسف) . تحميني من السقوط نهائياً في التجربة ، أي تجربة ، ما دام عليّ باستمرار أن ألعب دور موظف المخابرات على حواسي وأعضائي وأدوّن التقارير حولها ! . . يا لرعبي من نفسي ! نفسي المتعددة الملونة الغزيرة . . كم أنا غزيرة . كأني قبيلة من النساء في كل لحظة وفي آن واحد . أنا امرأة الرقة وامرأة الشراسة وامرأة الانتظار . . ما أغباني ! . . من داخل الانزلاق أتابع صراخي . . . وأكتب . . ما جدوى أن اكتب ؟ . . جنون . مجرد جنون . إنه جنوني الخاص . إنني مهووسة كتابة .

* * *

حدث شيء هائل . على الصفحة بدأت الألوان ببقعة خضراء ، ثم بنفسجية ثم برتقالية ، صفراء ، خضراء . الألوان تندفع الى عيوني ، وتنفجر داخلها مثل حزمة من الألعاب النارية ، وتحترق عيوني ، وأشعر ببعض الخوف من العمى ـ عقاب من يرى ما هو فوق طاقة الحواسّ والمسموح عادة ـ وبنشوة لا حدود لها . . . كم هي ساحرة تلك الألوان ! . . أشعر بألم في أحشائي ، وبموجة من اللزوجة الحارة تهاجمني . . إنني داخل الموجة . . موجة الألوان والألم والنشوة ، وإذا لم أغالبها غلبتني . أعوم أو أغرق مثقلة بالخنجر المغروس في أحشائي وألمه . لكنني سأعوم . جسدي كله يرتجف ، والكتابة تحرمني إبحاراً أبعد لكنها تقويني بطريقة ما . قوس قزح على الورق ، وأسمع صوت القلم وهو يتحرك على الورق عالياً كطلقات رصاص وأرتجف . . .

* * *

الساعة الثامنة والنصف . ربما كانت عزلتي لا تروقهما . يغادران الغرفة ثم يعودان ، ويتحركان حولي باستمرار كأنما ليذكراني بوجودهما .

الكتابة بدأت تصير جهداً جباراً . إني منبطحة على الارض ، واشعر بألم حاد في

أحشائي وبحاجة الى الأنين . لن ائن رغم أنني وحيدة في الغرفة ، لأنني أعرف أن ذلك لا يجدي . بصعوبة ارفع رأسي لاتأكد من أن لا احد في الغرفة . يدي ترتجف . أسمع صوت أنين . انه إذاً صوتي أنا . اسمعه غريباً عني ولكنه صوتي حتما ما دمت وحدي في الغرفة . تغمرني رغبة في التقيؤ . لن . سأظل مكومة داخل نفسي . لن يصدر عني صوت ولن يخرج مني شيء ولن يدخل اليّ شيء . إني صدفة محكمة الاغلاق ، وغير مستعصية على الانفتاح حين تشاء . المهم لا شيء يحدث خارج إرادتي . واذا حدث فانه يحدث سراً وفي داخلي وبالتالي تحفظ الارادة كبرياءها .

عادا .

أشعر بعطش مروع . أدب على أربع نحو الماء . يدي ترتجف . ارفع الكأس الى فمي . ويقول جريجوري : لا تشربي دفعة واحدة وإلا غسلت المخدر . خذي رشفات صغيرة جداً من الماء بين وقت وآخر . . .

لا أشرب حتى ولا قطرة واحدة . سأعيش التجربة ، أي تجربة ، والعطش ثمن بخس . . إن رغبتي في الاكتشاف والجديد لا تعادلها رغبة . .

يتحاوران ، وأنا أتابع الكتابة . يضحكان . أتابع الكتابة . آه كم وجودي مرعب وشرس ! يراقبني جريجوري أحياناً كما لو كنت حيواناً غامضاً من حيوانات ما قبل التاريخ . تراني أبدو من الخارج مثل دينا صور مثلاً ؟ لا . الديناصور مسكين . محشور داخل كونه جسداً ضخماً . إنه عاجز عن الاختباء او الرقص أو الانتشار أو التناثر ولذا أنقرض . أنا حيوان أكثر تعقيداً ورقياً من الديناصور ولذا أستمر أنا وينقرض هو . من قال إنني استمر ؟ . . أي هراء حين نتوهم أننا نستمر (أجد صعوبة في ترقيم الصفحات) .

***

إني أرتجف ، وإذا لم اسيطر على نفسي فالأمر خطر . رأسي على الارض . مبطوحة على بطني والكتابة ليست مريحة إني أئن وارتجف . لا اشعر بالراحة حين يغادران الغرفة . انني اريدهما ولا أريدهما . أريد أن يكونا معي ولا يكونا . في آن واحد . أريدهما معي ولكن خارج جلدي . كل شيء يجب ان يظل خارج جلدي ما دمت أنا شخصياً خارج جلدي ، منتشرة في السحب .

لا أشعر بالشهوة ، لا الحب . لا الغيظ . لا شيء . إنني فقط منتشرة وشاسعة ، وسحابة من غبار ذري فوق كوكب ناء ناء (اسمع صوتي ائن) . حسناً . إنهما خارج الغرفة . يعدان القهوة . سألاني إذا كنت أريد قهوة وطلبت ماء . لا أحب شيئاً في العالم

كالماء . أفضل الماء على الخمرة . ليس تماماً . لا أفضل أي شيء على أي شيء ولا أفضل ما هو خارج يدي على ما في يدي ، أو العكس . إن القضايا أكثر تعقيداً من ذلك ، و (قوانين) لا يد لنا فيها هي التي تعبث بنا . كلمة (قوانين) خاطئة أصلاً . أتذكر من جديد شكسبير :

« نحن كالذباب

بين أيدي الأرباب العابثة كالأطفال

إنهم يقتلوننا

من أجل رياضة صيدهم ! »

أجل ! عبث . . عبث . . . لا قوانين . . مع التشتت والسحب والامواج وكل هذه العناصر الأولية، لا يمكن استعمال أوعية أو مكاييل وموازين ومقاييس. . . ومن هنا المهزلة . . المؤسسات تحاول عبثاً أن تكون وعاء للانسان . وعاء للعواطف والاحاسيس . والانسان ـ كما أحس الآن وأنا واثقة من صدق شعوري ـ هو سحابة وموجة ، والقبض عليه بالتالي مستحيل . واذا مكّن الإنسان القيد من نفسه ، ورضي بالانسكاب في وعاء ورضي بالقبض عليه ، فإنه يصير تعيساً تعيساً ، والوعاء أيضاً تتوجع أطرافه بكل ذلك الاصطخاب في داخله (تماما كما يتوجع جسدي ـ أي وعائي ـ الآن) .

يقول جريجوري :

« انت امرأة قوية . أسلوبك في التعامل مع المخدر ساحر ومدهش » !

أحاول أن أرد ولا أجد صوتي . هنالك أغنية تجرفني إليها . تقول كلماتها :

« فقط عدني يا حبيبي بأن حبنا سيظل صادقا الى الابد » . كم تبدو الكلمات مراهقة وهشة . . ! كلمة « عدني » مثلا . من يستطيع أن يعد بأي شيء في العالم . . من يملك نفسه أصلاً ليملك تحقيق وعوده ؟ ألحظ أن قدرتي على أن أكون وحيدة تضايقني . لعلها تحرمني من جو أكثر حرارة وألفة . . . قدرتي على عدم الارتماء بين ذراعي جريجوري ترعبني ؟ تدهشني ؟ تثير فضولي ؟ احتقاري ؟

لا يهم . فلأرحل بعيداً . . .

أردت أن أقول شيئاً لجريجوري ثم بدلت رأيي . كل كلمة هي تورط . الآن أفهم لماذا أميل الى الصمت . أرى يدي ضخمة جداً . بدأت أضيّع وعيي بنسب الأشياء وحجومها المألوفة . كل شيء لا يبدو لي كالمعتاد أو مألوفاً . كل شيء في حاجة الى تأمل وإمعان من جديد . . .

يقول لي جريجوري : ان ما اخذته من المخدر يكفي لاطلاق فيل في الغابة بحالـة جنون يقتلع الاشجار ويرقص الباليه على خرطومه . . . (هل هذا تحريض لي على الخروج من داخل ذاتي تحت إغراء الوهم بأنه يحق لي أن أكون سخيفة باسم المخدر ؟ . لا اغراء في العالم ينجح في انزلاقي عن ذاتي الى الابتذال ، ليس خوفاً من أن أصير موضع سخرية ، ولكن لأن ذلك يفسد عليّ قدرتي على الاستمتاع بذاتي) .

الألوان تتراقص على الصفحة . ألوان . ألوان . حارة . متدفقة . رائعة جميلة . اني أعوم فوق نهر من الموسيقى والالوان المنصهرة ، إنني جزء من هذا النهر وكل شيء مضيء وجميل ومسحور والسلام الكلي يغمرني . . . إنني قوية واستطيع أن آخذ مخدراً أكثر . . أكثر . . . أريد ان أبحر أكثر . . . أن أرى أكثر وأحس أكثر . . . قلت لجريجـوري : اريد مزيداً من المخدر . . . أريد متعة أكبر . .

قال : سيغمى عليك إذا أخذت ال . اس . دي . أكثر ، أو تجنين وتفقدين وعيك بما تفعلين ولن تستمتعي بأي شيء . . أصررت : ولكنني أشعر بأنني قادرة على أخـذ المزيد .

قال : الجميع يحسون بذلك في وقت من الأوقات . . إنها خدعة الشيطـان لتدمـير الضعفاء أمام شهواتهم . . . لاحظي أن هذا المخدر يعمل كموجات وأنت الآن في ذروة الموجة . . بعد قليل يتغير شعورك ورأيك . .

بحب أتأمل وجـه جريجوري وأراه طيفاً من الألوان . . ماذا يمثل لي جريجوري ؟ ولكن ، لماذا دوماً الوعاء ؟ ربما لذلك بالضبط ضرورة الوعاء ؟ . . إنني أحبه وكفى . . .

إذا كان علي أن اتعامل فجأة مع العالم الخارجي ، سأتماسك ، ولن يطلع أحد على الالوان التي تضيء داخل عيني ، أما أنا فأرى عالمهم مختلفاً لأن الاضاءة هي في داخلي أنا ، لا في الخارج المظلم . . جريجوري يناديني (ورقة الشجرة الزرقاء) بالضبط يقول «BLUE LEAF» . إنه لطيف معي . أنا وحش وحيد منطلق في الغابة ، ولغة اللطف الآن غير مجدية مع جروحي . . جروحي على طيلة عصور . . .

سأدخل الآن الى الغابة في داخلي .

اتمنى إسدال الستائر تماماً ، ولكن ذلك يتطلب استئذانهما وأفضل البقاء صامتـة . سأسدلها دون إذن ! . . . الأغنية تقول :

« اننا لا نملك غدا
لكننا نملك البارحة . »

كلمات . . كلمات . . كلمات . . اني انزلق وكل ما حولي . . كلنا نسقط باستمرار وبلا نهاية . . ما جدوى أن أكتب ؟ ما جدوى أن أرقم الصفحات . كم يبدو لي ذلك الآن مضحكاً ومتعباً . جسدي يتورم . . يتعفن أمام عيوني . . يخرج منه الدود ويبدأ التهامي . ها أنا مجرد هيكل عظمي . . من جديد يكسوني اللحم . يتورم . يتعفن . يأكلني الدود . تتسارع العملية . أمارس الموت مرات عديدة . أخنق صرختي . جريجوري خرج الى الشرفة . حتى ولو تمسكت به ، فما جدوى ذلك . هو أيضاً أراه يتورم يتعفن . يلتهمه الدود . ما أشده بؤسنا . ما أصعب خنق تلك الصرخة في حلقي . هنالك مذاق حاد للالم . ألم شرس يفترسني باستمرار هو كائن خلف كل شيء . خلف كل ما يمكن أن أفعله . الالتصاق الانساني يبدو الآن ـ أكثر من أي لحظة في عمري ـ حاجة وأكذوبة في آن واحد . مجرد أكذوبة . كل ما يدور هو تجسيد لهذه الاستحالة . . وها أنا أغرق في قاع الموجة وأتكوم تحت الثلج مستسلمة للخنجر في أحشائي ، وسحر جريجوري الأشقر أفق ناء .

***

هذا المخدر رهيب . إنه يعمل بشكل موجات . من جديد تهجم موجة النار الملون إلى عيوني وأصابعي وحواسي كلها . إني اشتعل . رأسي يشتعل ألواناً راجفة شرسة . جريجوري يحاول أن يروي لي نكتة (ألحظ انني أرتجف ولا أضحك) . . .

يقول :

« البارحة شيك ملغى

غدا شيك موعود

اليوم (كاش) ! »

إني أتوجع وأئن . كل ثرثرتي عن التماسك تذوب في أنيني . . . لا يلحظون ذلك ، فهم أيضاً ـ ربما ـ كانوا يئنون أو لا يبالون بي . أسمع صوتي يضحك . . الضحك والأنين شيء واحد بالنسبة الى الرئتين !

يريد جريجوري تصويري . يقول : « إذا كان ذلك لا يضايقك » . كيف أفسر لهما أنني عائمة في الفراغ ، وانني مثل كوكب لا يهمه من يرصده أو يتأمله من ذروة مرصد أو يلتقط له الصورة ؟ . . لا يقبل أو يرفض . . .

قال جريجوري : اني ارتجف . . . واقف أمامي كالعملاق . جسده جميل كالتماثيل الاغريقية ، بالاحرى كما يجب أن تكون عليه التماثيل . . ملونة ومرتجفة وحية . . شعره

أشقر مضيء كالشمس . انا الآن ممددة على ظهري وأوراقي على بطني والكتابة تعذيب ولا ترى عيني ما تخطه يدي . . حين أغمض عيني أرى عالماً مذهلاً . . . تنفتح لي دنيا الثعابين المضيئة وتأخذني الى داخلها . . سمعت صوتي طالباً المزيد من المخدر . سمعت جريجوري الحنون المتفهم ككاهن في معبد يقول : لا . ربما لو قال « نعم » لقلت « لا » . يجب أن يظل أحدنا محتفظاً برأسه !! . .

ما زال يصورني أو يحاول تصويري . . . يرتجف . أخيراً ثبت الكاميرا على كرسي وقال لي : إنني عبثاً أصوب العدسة عليك . تعالي وانظري من الكاميرا ثم ثبتي نفسك داخل الصورة حيث يجب أن تكوني ! . . ضحكنا . أصابتنا نوبة ضحك . جريجوري وأنتوني وانا يكاد يغمى علينا من الضحك ونحن نتخيل الناس في السهرات والكوكتيلات والحفلات الرسمية يتصورون هكذا . المصور يثبت الكاميرا وكل واحد يأتي ليحدق من عدستها الى حيث يجب أن يضع نفسه ليكون في الصورة . . . نضحك نضحك نضحك . . .

ما أسهل السقوط في فخ الضحك الرخيص ! أريد أن أتابع رحلتي في الداخل . أن أغمض عيني لأعود إلى غابة الالوان المسحورة والثعابين المضيئة . لا مفر من أن يتابع الانسان رحيله وحيداً اذا كان يبغي الوصول الى اصقاع غير مطروقة . . .

أشهق وأشعر بالذعر لأنني أرى مخلباً يمتد فوق الورقة . .

***

اني أعوم فوق موجة مائية من الدفء والالوان المذهلة التنوع السريعة التبدل كومض البرق . . . برق ملون يفترس العالم . . ما يدور في الحانات الليلية من إضاءة (بسيكاديليك) هو مجرد تقليد سخيف لروعة ما أراه الآن ، والفرق بينهما كالفرق بين (الفلاش) الهزيل والبرق العظيم ! . . الساعة صارت ٩,٣٠ يا إلهي ! مر الزمن الحار مثل نهر من الزئبق ولم أشعر به . مدهشة قدرة الرجال على الاهتمام بعالم التفاصيل . كاميرات ، قوارب ، عدسات ، سيارات ، لديهم الفة عجيبة مع الآلات . أنا لا استمع أحياناً الى الموسيقى لأني أكره ملمس شريط التسجيل ، وضبط الازرار ، وأخاف كثيراً من فيش الكهرباء ، ولكن جريجوري وانتوني غارقان في حوار راجف حول الآتهم - كاميرات - دراجات نارية ، قوارب سريعة .

إني وسط الموجة تماماً . تعلو بي الى الذروة وتقذف بي في الجو ، فأتناثر ، وأسقط شلالاً من الضوء ، لأتحد من جديد بالموجة . جسدي يلتهب . أحترق . ألوان ألوان

مذهلة الروعة والحدة والدفء . سأفتقدها لأني أعرف انها ستذهب ولن أراها على الورق دائماً . حيوان رهيب يمشي على السطر . إنه نملة . من أين جاءت ؟ لا تبدو كنملة . تبدو جديدة وضخمة وأكبر مني ، وأخاف منها ، وأستميت لأحاربها ، والورقة صحراء بيضاء شاسعة ، ونحن حيوانان وحيدان . قتلتها بلا رحمة .

***

كل هذه الدروب المضيئة . .

كل هذه التي تنفتح لي . أي حركة الى جانبي ترعبني . يدي تبدو لي مخيفة . كأنها كائن آخر . كأنها حيوان مستقل قادم من مكان ما . لو خلعت ملابسي الآن لأصبت بالذعر حتماً ، ولشاهدت جسدي كما لو كان حيواناً منفصلاً عني ! أقرر أن انهض واخلع ملابسي . لا استطيع النهوض عن الارض . اعضاء جسدي كلها تؤلمني . تغلي . تفور . . . آه ! . .

تنهمر في داخلي نجوم مضيئة . الدنيا برتقالية مضيئة . ما أجمل اللون البرتقالي حين تدب فيه الحياة هكذا ، ويتنفس . . ما اروع هذه الالوان التي تخفق وتتأوه وتشتعل وتمشي وتفوح رائحتها وتحلم وتصرخ . . أنا حفنة نجوم ملونة . . أنا راكعة تحت شلال من النور الدافىء . . أنا لهبة نار . . أحترق . . ارتجف . . أتواصل وشلال النور، أهطل الى الأعلى .

شربت قليلاً جداً من الماء لئلا أغسل المخدر. رغم وجعي لا أريد أن يزول مفعوله . الامر ساحر رغم الالم . رغبتي في تجربة كل شيء أقوى من خوفي أمام الالم . أنا فاوست احياناً ، أبيع بعض أيامي للشيطان مقابل اكتشاف المزيد من اعماقي ودهاليزي وأسرار الكون حولي . . أنا في ذروة الموجة . جريجوري أيضاً . وجهه ألوان . قال انه كان تحت البحر مع حوت وكانا يسبحان معاً الى الاعماق الى البعيد ، ثم فجأة تذكر أنه ليس حوتاً فترك الحوت وبدأ يسبح عائدا الى سطح البحر ، والحوت يحدق فيه مدهوشاً ويسأله لماذا . . .

الالم في الاحشاء . كل هذا الزخم والدفء لا يستطيع القلب احتماله وحيداً . على الورق تتلاحق الالوان الحية . برتقالي . أصفر . اخضر . استعمل أسماء الالوان مجازاً . ما أراه لا علاقة له باللون في حالته الراكدة (الستاتيكية) التي اعتدنا عليها . اللون الآن كائن حي مستقل ، كأنه يولد ويكبر ويهرم ويموت في الثانية التي يستغرقها توهجه المليء بالزخم والإشعاع . . .

القلم لصق الارض . الورق لصق الارض . وأنا لصق الأرض . سأحاول أن أتابع التسجيل قدر الامكان . تأتي موجات تغلبك وتعجز عن شيء غير الارتجاف ، والإبحار معها الى غابات مسحورة مسحورة ، ثم تنحسر الموجة قليلاً فأسارع الى القلم . . .

أشهق . أقفز مذعورة . . . لقد رموا اليَّ بصوري وأخافتني الحركة الى جانبي . الكاميرا التي بها يصورون تطبع الصور فوراً (بولا رويد) .مذهل تأمل الورقة الرمادية بينما الوجوه تنبت فيها وتطلع ، والعيون والملامح تخرج شيئاً فشيئاً وخلال دقيقة تتكون الصورة . . إحساس مدهش وسحري ، كأنك تنظر في كرة الساحرة الشفافة لترى فيها وجه الحبيب ومكانه . . اتأمل الصور وعبثاً أراها جيداً . . كل شيء يتماوج تحت عيني وألوان سريعة تتلاحق وتشوش الرؤ ية . . . رغم ذلك كله يبدو لي أنه في صوري كلها ، وانا مرمية على الارض هكذا ، توجد إلى جانبي نافذة . نافذة أو كوة ؟ من أين النافذة ارتسمت في الصورة وليست هنالك أي نافذة الى جانبي على الارض ؟ كيف في كل صورة لي هناك نافذة ؟ من أين طلعت النافذة في الصورة ؟ أم أن الكاميرا تصور أحلامي ؟ أم أنها يد جريجوري المرتجفة اثناء التصوير تسببت في بقعة تبدو كنافذة او كوة على الفضاء ؟ أتسلق النافذة . أمد رجلي أولاً . استعيدها . . أمرر رأسي أولاً . متى مر الرأس انزلق الجسد بأكمله ! المهم إقناع الرأس وتدبيره أولاً ! هذا ينطبق على كل شيء . . اخرج من النافذة وأطير . اتوهج وأطير على درب ناي حنون . . . صوت ناي حنون . . جريجوري يعزف . وأشعر بأنني أذوب مع اللحن . استحيل الى مجرد أنغام. أدخل في القيثارة . أخرج من ثقوبها . أتسلقها نحو شفتيه ، وأحس بحاجة الى أن يضمني أحد . ان يضمني أن يضمني أن يضمني أحد ما . انتوني أيضاً يعزف بعذوبة . يلهث متعباً ، ويعطيني الناي لأنفخ فيه : إنه دورك . . أقول لهما : انني لا أحسن العزف ولا أحب مضايقة أحد . والحل ؟ سأذهب الى الغرفة المجاورة وأعزف . اذهب الى الممشى . انفخ في الناي بكل ما في حنجرتي من صراخ ، وبكل ما في قلبي من وحشة أعرف أن لا شيء يستطيع تبديدها . . .أصرخ في الناي يخرج الصوت حزيناً وناشزاً مثل صرخة أخرس يغمدون فأساً في قلبه . . . ثم أصمت ، ويخيفني الصمت ، وألحظ أنني أمسك الناي كما لو كان هراوة ، وأحس برغبة في العنف ، ومن السهل أن أضرب أي رأس يطل الآن من الباب ! لم يطلّ أي رأس ، ولاحظت يدي مجرمة قابضة على الناي بتحفز ، وخجلت من نفسي ، وأدهشني كيف يمكن للناي أن يستحيل عصا في اليد نفسها وخلال ثوان . . وقررت أن في أعماقي أشياء مرعبة ومجهولة ، وخفت من نفسي ، وشعرت أن امرأة لها صورتي وشكلي

تحمل « ناياً ـ هراوة » وسوف تنهال بها على رأسي . وركضت هاربة اليهما . . وجدتهما مستغرقين في الضحك من أسلوبي في الزعيق بالناي . قال جريجوري : كنت تصرخين ! (كنت أريد أن أقول له شيئاً ولكن لماذا أقول أي شيء . ما جدوى أن أقول أو لا أقول ، أن يسمع أو لا يسمع . . أن . . وأن لا . . .)

انسحب من جديد الى داخل ذاتي دونما تأثيرات عالمهم العذب والعابر وموسيقاهم وكل تلك الإلهاءات (السنتمنتالية) عن الرحيل الى الداخل . . أحس بأنني حبة رمل في شاطىء شاسع . . أشعر بغربة الرمل . الغربة . إني وحيدة . كم أنا وحيدة ، رغم أن بعض جسدي يعمل بنشاط محاولاً تقديم اقتراح لي بالهرب الى الجنس . . أشياء ساخنة تتسرب من شقوقي كلها . . لو لم يحذرني جريجوري من ذلك سلفاً للجأت حتماً الى هذا الهرب الرخيص . كان قد قال لي وهو كاهن المكان الخبير برحلاته وعقاقيره : الخطر في « ال . اس . دي » أن البعض يتلهون بالشهوة الجنسية الرهيبة التي يطلقها ، ويفشلون بذلك في الإبحار الى داخلهم . . إنه عقار يجعلك تعين مدى وحدتك ، ولذا يهربون عادة الى الجنس أو المزاح أو الشجار لدحر الوحدة ، لكن الجنس مع « ال . اس . دي » يخلف شعوراً مدمراً بالخيبة والخواء . كي تستمتعي بـ « ال .اس . دي » يجب أن تكوني قادرة على أن تكوني وحيدة . . .

وتذكرت كم وكم وكم كنت وحيدة . . (مرمية على وجهي في حديقة الهايد بارك بلندن على الحشائش والثلج يهطل وانا ثملة ووحيدة وأتقيأ بوجع . . . لا أذكر هل ثملت ليلتها لانني وحيدة أم العكس ، لكنني أذكر جيداً انني شربت زجاجة نبيذ كاملة في نصف ساعة ، ثم خرجت من غرفتي راكضة مثل حيوان جريح مذعور وجد نفسه في شارع مزدحم ، وانني ظللت أركض في الهايد بارك حتى صرت في دائرة قطرها كيلومتر على الاقل . فارغة تماما من أي أثر للحياة سواي ، والاشجار والاعشاب والنمل ، وانني دفنت نفسي حية ، وبدأت ائن وأبكي واشفقت على نفسي من القيء والقرف ، وتدحرجت بعيدا عنه ، أمسح وجهي بالعشب النقي والثلج . . . والثلج ظل يهطل ولم أتحرك وتركته يكفنني . ثم شعرت بهلع مروع : سأموت برداً إذا لم أتحرك . . وشعرت بأن ساقي ميتتان ومجلدتان ، ونهضت فجأة أركض مذعورة وسقطت على الارض . ولم تحملني قدماي ، ونهضت ثانية وسقطت ، وثالثة وسقطت ، وصرت أدب على أربع وأركض وأزحف وأكافح لاخرج من الحديقة المقفرة إلا من الموت الابيض . . . وحين وصلت الى الشارع كانت آثار الخمرة كلها قد انطفأت في رأسي ، والدم المتجمد يسيل من أصابعي المتشققة المجرحة بالحصى والزحف . . وسرت بهدوء مروع . . .

هدوء من خرج من مقبرة بعد أن دفن فيها إلى الأبد حاجته الى الآخرين ؟ . . . ولكن « الحاجة الى الآخرين » هي الميت الذي ينهض كل ليلة من أكفانه ويلاحقنا شبحه بلا رحمة) . . .

أفتش عن جريجوري لأرتمي بين ذراعيه . ها هو على الشرفة داخل شرنقة صقيعة . كم هو أيضاً وحيد مثلي . . . نحن ذئبان وحيدان حزينان في أعماقهما جوع الاطفال الى حكاية دافئة قبل النوم . . . ولكن . . . لا أحد .

***

ما زالت الكتابة تعذيباً وانا مبطوحة هكذا على بطني وألم غامض يتنقل من مكان الى آخر في جسدي . لاحظت أن صوت احتكاك شعري بالورق وهو المكوم فوقه يرعبني . . عادت موجة النار . . . عاد ذلك العالم المذهل الذي أراه فقط حين أغمض عيني . . كون مستقل بذاته . مختلف الايقاع والألوان والنبض عن كل ما هو مألوف . المهم ألا أسقط الى قاع النار الملتهبة هناك (المهم أن أظل باستمرار أسير على ذلك الخيط الفاصل بين الوعي وفقدان الوعي ، واذا زحت عنه قيد انملة فقدت قدرتي على الكتابة والحياة ، والفعالية والحرية . . . ذلك الخيط هو الصراط المستقيم بالنسبة الى الفنان . . . المهم ألا أسقط في فخ الوعي الاجتماعي كموقف نهائي ، ولا في فخ التخدير كموقف نهائي . المهم أن أظل أتنقل بين هذين العالمين على ما في ذلك من عذاب ومشقة) . محرمة علي نعمة الاستسلام والانتماء الى المجتمع الشرعي نهائياً أو الانتماء الى عالم التخدير وآكلي اللوتس المرفوض رسمياً . . على الخيط بينهما أسير باستمرار ، مثل خيط ممدود بين الكواكب أركض عليه ، أحياناً رشيقة الخطى كفراشة وأتعثر حيناً آخر وأتمسك بالخيط والهاوية تفغر فاها لتبتلعني في الضياع النهائي . . لن أضيع . . وجه جريجوري قريب . يحدثني عن سبينوزا ويشير بيده . يده جميلة جميلة كتمثال إغريقي . أستمع إليه ولا أفهم شيئاً . يلحظ ذلك ويحاول أن يشرح لي برسم خارطة . . لا أفهم أكثر ! . .

***

أتابع الكتابة (لماذا علينا أن نقلب صفحات الدفتر لنكتب) . كل شيء يعاود احتراقه . الوان . الوان . خصب من الالوان والدفء . الساعة ١١ وأنا بدأت أنهار تماماً إلى الداخل . أنزلق . ولم يعد من الممكن أن أصدر حتى حشرجة من داخل هذا الانزلاق حيث الارض تعاود انطباقها بعد سقوطي الى الداخل وابتلاعي . صارت الكتابة مستحيلة .

استيقظت . وجدتني مرمية على الورق منذ لا أدري متى . الساعة ١١ ونصف . القلم ما زال في يدي . شعرت بأن المشهد رومانتيكي مثل لوحة سيئة أسمها مثلا : « الاديبة شمعة تحترق » ! . . . ضحكت طويلا وقررت أن أتدحرج على الارض بعيداً عن الورق لأتابع رحلتي الى المغارة المسحورة في داخلي . سوف أطبق نوافذي . . جسدي مثل قلعة سوف تغلق كل أبوابها وجفونها وفمها وفتحات أذنيها ، وسوف أرفع في داخلي كل السلالم التي منها أطل من أسواري على ما حولي ، وسأهبط أدراجي الى قبوي المعتم ، ومن هناك سأحفر في الجدار لصق التراب ، سأحفر ثغرة صغيرة تتسع لخروجي وحدي ، وسأخرج وحدي متسللة من ذاتي الى الليل حيث الغابة تنتظرني . الغابة بكل ما فيها من أسرار ستنفتح لي وحدي كالصدفة ، وتأخذني الى أسرارها العجائبية . لن أخاف وسأمضي وحيدة من دون يد جريجوري ، فالثغرة التي فتحتها لا تتسع إلا لخروج شخص واحد ، وهي تُنسَدُّ بعد خروجه تلقائيا . سأتدحرج بعيدا عن الورق والقلم وأرحل من دون حتى علائم طريق ترشد الى السبيل التي سلكتها في دربي الى الهاوية . لا أريد أن أبرر لأحد شيئاً . المهم أن أنهار بعيداً عن القلم والورق . لا أحب مشهد أضرحة الشهداء . أحب الموت السري .

***

أسير في شارع طويل تضيء على جانبيه علامات وتوجد هوة على طرفيه خلف العلامات . انطفأت العلامات . أظل أسير . أسقط في الهاوية . أشهق . أستيقظ . أتذكر انني تحت تأثير مخدر . تجيء الموجة . أستحضر قواي وأقرر أن أنسحب الى الداخل وأن أحقق أمراً كبيراً . قررت أن أرى وجه أمي التي ماتت وأنا طفلة . . اتواطأ مع ذاتي . . (أمي مسجاة على سريرها . إنها تحتضر . أمامها طبيب يرتدي شيئاً أسود . أظنه كاهناً . لا . إنه طبيب وكاهن . أكاد أتذكرُ اسمه . أسمع شخصاً يخاطبه باسمه . وجهه يروح ويجيء داخل موجة ضبابية . له لحية قصيرة . إنه طويل القامة . أرى نفسي الى جانب السرير . صغيرة جدا . كم أنا نحيلة ومسكينة وأبكي . امرأة في ثوب أبيض تقترب . إنها ممرضة تنقط على فم أمي قطرات ماء بالقطنة . نعم تقطر الماء بالقطنة نقطة نقطة . أمي تخرج لسانها . تريد ماء . لماذا لا يسقونها ماء . اسقوا أمي ماء . . . أصرخ . .) انتوني يتأمل وجهي بحنان . الدموع تفيض من عينيه لكنه يضحك . قناعه يضحك وعيناه تبكيان . أضحك معه وأنا أبكي . أكف عن البكاء ولكن عينيه لا تكفان عن البكاء .

هنالك ألم في أحشائي . حريق ما . ألوان وألوان . تتراقص كلها وتتماوج . أتلفت حولي . وحيدة في الغرفة . لست خائفة . خرجت وناديت جريجوري . سمعت صوته وسررت . عدت إلى الغرفة . أتمنى لو يعود سريعاً .

تشتعل الألوان داخل رأسي مثل انفجارات ضياء متلاحقة . كل انفجار يحرض آخر أكبر وأكبر . شفتاي رابيتان من النار . الموجة جاءت وسأنتهزها . سأرحل الى داخلي وأحاول من جديد رؤ ية أمي . . . الصورة تأتي وتتشكل من دخان ضبابي يقترب ويقترب . . يتصاعد من وادٍ عميق ويقترب . . تتضح قليلا . . أكثر . . (إننا في غرفة ما ، فيها أثاث لونه وردي . . سرير وردي وطاولة صغيرة وردية وطاولة كلها من الصدف الصغير الملصق بها والعاب . . وها أنا في ركن السرير أبكي ولا أريد أن أنام وتأتي وتحملني وأشم من عنقها رائحة حليب دافىء معطر . . . ثم يدخل شخص ويتشاجران وتتعالى الأصوات وأبكي . . وأبكي . . تنقلب الصورة . . أنا أكبر قليلاً . . أبدو كطفلة في السادسة . . هنالك امرأة تضربني وتسجنني في غرفة صغيرة لا نوافذ لها وتقول انها ستدهن لي اذني بالدبس كي تأكلني الفئران في الظلام . ظلام مروع آه . . كفى) . . أشهق . . ها أنا مرمية على الارض على بطني وأكتب . . أحاول أن أتذكر من كانت تلك المرأة ! لا يمكن ان تكون أمي . حين كنت في السادسة كانت أمي قد ماتت .

تعود موجة النار اللاسعة . . . أترك نفسي لها (إضاءات مذهلة وأنا في العصر الفارسي . أتحرك داخل لوحة من تلك اللوحات وقد بُعثتْ فيها الحياة . ارتدي ثياب ذلك العصر الحريرية وأسمع هسيسها على جسدي وأنا اتحرك في الحديقة قرب طاووس كبير . . إنني حية حقا وفي ذلك العصر) . . جريجوري يحدثني عن سبينوزا واستيقظ . يسخر من الفلسفة . الفلسفة كلها تفاصيل تفاصيل لا ضرورة لها حول شيء مبسط جداً هو ببساطة انني « . . . » . . كدت أكتب « أحيا » ثم لاحظت أنها ليست تماما الكلمة المطلوبة (إذاً كان هنالك لزوم لوجود الفلاسفة !) . . . جريجوري يقول : « الحقيقة الوحيدة هي انني حي » . . تأملت وجوده المذهل الحيوية حتى العجز عن القبض عليه ، وحزنت فرحاً ! . .

***

يحدثني جريجوري . أحب الإنصات إليه . يقول لي : كم نرى الزمن من زاوية ضيقة . فكري أن عمر الجبل ٣٠ مليون سنة مثلاً ، وعمر أي حب نتمزق لأجله ليس أكثر من سنوات ! هذا لا يستوعبه إلا الذين يأخذون « ال . اس . دي » . المسنون أيضاً

يعونه ، ولذا ترينهم يهزون رؤوسهم باستمرار وبصمت ! . . يتحدث ساخراً عن سقراط وكوبرنيك وكولومبوس . . . أقول له أني ذاهبة الى الحمام .

نهضت وسرت وكان جسدي خفيفاً يطير في الفضاء كما صور رواد الفضاء على القمر وفي الفراغ . . أعوم بيسر مذهل ممتع . . حواسي مرهفة الى حد لا يصدق ، وفي الحمام كنت أسمع الأصوات التي تدور خلف الجدران . . نظرت الى المرآة . شاهدت وجه امرأة لا اعرفها !

***

الساعة ١٢ إلا ثلثاً . أي حركة تصبح مجهوداً خارقاً . الرحلة لإحضار خبز من المطبخ كانت شاقة ، وركبتاي ما زالتا تصطكان ، وكانت الارض تهرب من تحت أقدامي وتنهار إلى الأسفل هي وأنا والجدار حين اتمسك به ، وهنالك ألم حاد في معدتي يشبه الجوع ومقبض البراد ينصهر تحت يدي . كانت في البراد صرة ، ودون أن أفتحها شاهدت أن في داخلها جبناً وحين فتحتها ، كان الأمر كذلك . أكلت خبزاً بشراهة مخجلة مثل حيوان في الغابة ، وفرحت لأن أحداً لا يراني .

***

انتوني ينفجر ضاحكاً . تلك الضحكة العذبة البريئة . ما الحكاية يا انتوني ؟ يطلعنا على صورة كلب . وجه الكلب إنساني يشبه شخصاً نعرفه . تعبير العينين بالذات يشبه شخصاً مصاباً بعسر الهضم وساخطاً لأنه شبع ، ولم يعد في وسعه أن يأكل المزيد ! . . . تنتابنا نوبة ضحك . نضحك نضحك نضحك . . نتابع تقليب الكتاب وتطالعنا صور الكلاب ، ونرى فيها وجوهاً نعرفها . . .

فجأة تهاجمني موجة الزئبق وتتقدم نحوي لتبتلعني وهي في حالة الغليان . أغطي رأسي بوسادة . أغطي جسدي بوسادة أخرى وأرتمي في زاوية الغرفة . يناديني جريجوري : أيتها المرأة التي تحت المخدة . . . ماذا تحت المخدة ؟ .

قلت له : مخدة . ماذا تتوقع ؟ . . وداخل المخدة مخدة . . . واذا فتحت المخدة وجدت داخلها مخدة . . وكل مخدة داخلها مخدة الى ما لا نهاية . . وانفجرنا نضحك نضحك وصار منظر المخدة وحدها كافياً لتفجير ضحكنا وحسنا العبثي بالأشياء . . . إفتح الباب تجد خلفه باباً . وخلف الباب باب وخلفه باب وخلف كل باب باب . . إنها ببساطة حكاية المخدة . . . المخدة تلخص كل الحكاية . . ونضحك ونضحك ونضحك .

تسرقنا من الضحك كلمات أغنية خاصة بالـ « ال . اس . دي » . تقـول كلمات الأغنية التي يُفترض أن تتحدث عن تجربة المطرب مع المخدر :

« إنني أنصت الى الرياح . . رياح نفسي
لا أحد غير الله يعرف ماذا أفعل وأين أستقر
لقد سبحت في بحيرة الشيطان
حين جلست فوق الشمس المبحرة . .
ولكنني لن أكررها أبداً أبداً أبداً . . .
ألتقط أفكاري ، لكنها تسقط بعيداً
وأترك الموسيقى تحملني إلى حيث يشتهي قلبي . . .
وأسبح في بحيرة الشيطان . .
أسبح في بحيرة الشيطان ، أعوم ولا أغرق
ولكنني لن أكررها أبداً أبداً أبداً أبداً . »

تأتيني موجة رهيبة من الالوان الحارة . تندفـع في حلقـي ورقبتـي وتصعـد داخـل رأسي ، وأشعر بعيني تكادان أن تنفجرا . أتألم ، ليس كثيراً . أخاف فقـط أن تنفجـر عيناي من زخم النار والألوان فيهما . أجدني أغني مع المطرب :

« اترك الموسيقى تحملني
إلى حيث يشتهي قلبي
وأسبح فوق بحيرة الشيطان
ولكنني لن أكررها
لن أكررها أبداً أبداً أبداً أبداً . »

وأظل اغني : « لن أكررها أبداً أبداً أبداً أبداً » حتى بعـد أن تنتهـي الأغنية وتبـدأ أخرى . . .

***

الساعة الواحدة وأنا في ذروة الرحلة . . . جريجوري قال إنه ذاهب لاحضار شمعة زرقاء . . (ألحَظُ أن عروق يدي كلها منتفخة ومتورمة جداً ، وجلدي شديد الاحمرار ، وفي داخلي يشب حريق) . . آه كيف عاد طوفان الألوان الكاوية . ها هي من جديد تنفجر داخل عيني . . آه كيف تنفجر الأسهم النارية وسط عينيّ . اغمضهما خوفاً وتظل الأسهم النارية تشتعل وتنطلق . لا أظنني سأجرؤ على تجـريب هذا المخـدر ثانية ، خوفـاً على

عيني . إن خوفي من تعطيل جسدي تعطيلاً دائماً يفسد علي الرحلة . . تذكرت ما يقال عن أن كل رحلة « ال . اس . دي » تقتل نهائياً عـدداً معيناً من خلايا الدماغ وبالذات خلايا الذاكرة . هذا رائع . من يريد أن يتذكر ؟ فلتسقـط الـذاكرة وليحيَ النسيان . ولتكن الذاكرة أداة للنسيان . . الموجة ما زالت تتكاثف وتعلو وسوف تغمر مركبي بعد لحظات . من الافضل ألا أقاوم . (اذا لم أبحر مع الموجة وأتحرر من « جسدي ـ القيد » وانكفىء إلى الداخل كي أطير في الغابة المسحورة ، يصير جسدي مزعجاً وموجعاً جداً ومن الافضل أن أسبح في بحيرة الشيطان قبل أن يستولي الألم الجسدي عليّ) . . كل موجة لا نحسن السباحة فيها الى مجاهلنا تصير وجعاً جسدياً شرساً . . ذلك هو سر هذا المخـدر الرهيب . اذا استطاعت الموجة أن تغرقك فقد تحملك الى شطآن الجنون ، وما دمت أكتب فهذا معناه انني أستعين بطوق نجاة في بحيرة الشيطان ، خيط من الصحو يظل يشدني الى الشاطىء الآخر . . .

منذ ساعة أو ساعتين وأنا أبحث عن شريط تسجيل معين ثم أنسى ثم أتذكر ثم أنسى وهكذا . .

***

هذا المخدر يعمل بشكل موجات . . . تجيء لحظات أتوهـم فيهـا أنـي صحـوت وانتهت الرحلة ، ثم أُفاجأ بموجة عالية من النار الملون تطيح بي بعيداً ، أبعد من الموجة التي سبقتها ، وجسدي مركب بدأت تنهكه الامواج المتلاحقة لعاصفة الزئبـق الشـديد الغليان . .

الآن ، الألم في معدتي حاد جداً . الألم . يدي متورمة وعروقي تكاد تخرج من تحت جلدي . أسناني تصطك . سمعت صوتي وأنا ائن . أنهار على الورق .

لا ادري كم طالت غيبوبتي . أكتب الآن وأنا منطوية على بطني . لا ريب في أنني أتألم كثيراً ولكنني أعي وجعي مثل مخدَّر ببنج موضعي في غرفة العمليات وهو يرقبهـم يقصقصون لحمه بالآلات . . يحسها ولا يحسها تماماً ! . . . من جديد أرحـل في غابـة الانفجارات المضيئة الملونة ، المذهلة التناسق ، ذات التناغم الكلي اللامتناهي البهـاء ، حيث كل حركة ومضة برق لها رشاقة نمر خرافي . .

يوقظني جريجوري ، ما زال يتابع غيظه من الفلاسفة الذين درسهم جيداً . . يقول لي :

« لدى الناس أفكار كثيرة حول الحياة ، ولكن لماذا لا يعيشون » ؟

اتمنى لو كان عربياً . لو كان يتحدث بالعربية ، لا أعني لغة فقط ، بل روحاً . لو لم يكونا انكليزيين لاستمعنا الآن الى موسيقى عربية ما . . ولكن لماذا ؟ لا أدري ! أحب الموسيقى العربية ، ولكنها ـ للأسف ـ غير موجودة ! لا بد أن تكون موجودة في صدر عبقري ما لم يولد ، وأنا من المعجبين به سلفا ! . . .

جريجوري جالس وأمامه بقية الاقراص . يقول ضاحكاً : هذه هي الرأسمالية .

ثم بدأ يبرر لنفسه أو لي قائلا : اني مستعد لمنح من يشاء منه ، لكن أحداً لا يريد . الكل يخاف .الكحول كانت ممنوعة قبل مئة عام وهي الآن مسموحة ، وبعد مئة عام ستباع اقراص هذا المخدر كما تباع الكحول . كل ذنبي أنني ولدت قبل مئة عام من عصري . . .

انفجرنا نضحك .

أذكر أنني كنت أنوي التفتيش عن شريط تسجيل معين . وانني فعلت ذلك ونسيت . أعاود التفتيش .

كدت أسبب حريقاً . كنت أرش في جو الغرفة (سبراي) لتعطير رائحتها وجعلها منعشة ، وكنت أفعل ذلك قرب الشموع حين التهبت سحابة نار ، ولولا جريجوري لشب حريق . وطبعاً لم ألحظ التحذير المكتوب على الزجاجة بعدم استعمالها قرب النار .

ما أخطر هذا العقار ! إنه يعطل الحس بالخطر الحقيقي العملي ، ويلفت الأنظار الى أخطار أخرى مروعة مفترسة مثل نملة تسير على ورقة مثلا ! . . .

(ترى هل تفسد الرحلة الدماغ ؟ كل هذه اللمبات التي تُطفأ وتُضاء داخل رأسي متلاحقة وبجنون ، هل أستطيع احتمالها بقية الرحلة قبل أن أنهار ؟) . . .

الآن يغمر الورق والعالم لون برتقالي . أخضر . برتقالي . حار جداً . يلتمع نصل القلم على صدري كخنجر شفاف . انتهت موجة الصحو النسبية وعادت موجة النار الملون لتحتلني وسأرحل معها الى بحيرات الشيطان . . .

***

صحو نسبي . أشعر بالحاجة الى أن أكون ودية . أقرر أن أعطي سيجارة غلواز لجريجوري وأخرى لانتوني . لا شيء يبدو كالمعتاد . لفافة السيجارة شاهقة مثل عمود في الخلاء وأنا أقف صغيرة أمامها . ملمسها مختلف . يحاول جريجوري أن يساعدني . من الواضح انني عاجزة حتى عن الامساك بسيجارة . (أشم رائحة حريق من وقت الى آخر

ولا شيء يحترق) . أفتش عن شريط التسجيل . أظل أفتش ولا أذكر عن أي شيء أفتش . أتابع التفتيش وأحزن لأنني لم اجد ما كنت أفتش عنه ونسيته ! . . اثناء التفتيش قلبت منفضة السجائر على البطانية البيضاء . كانت إعادة الأعقاب الى المنفضة عملية شاقة جداً . وانشغلت بتفاصيل تنظيفها حتى تعبت جداً جداً . . . أوه كم العالم الخارجي مرهق وشاق ! هذا المخدر مصنوع لنرحل الى الداخل .

***

أشعر بألم حاد يخترق دماغي من المنتصف ، وسينشطر رأسي إذا لم أبحر مع الموجة ، مخلفة جسدي ورائي مع الألم الفيزيولوجي الذي يعوقه عادة عن الإبحار ويدفع بالضعفاء إلى الانهيار على عتبته ، فيُحرمون من السباحة في بركة الشيطان . أنا الآن ذاهبة الى بحيرة الشيطان ، ولولا ذلك الخنجر في احشائي لاستمتعت بالرحلة أكثر . وجع في الأحشاء يشتد ويخفت . كل شيء موجات . الألم موجات . العالم كله موجات . العواطف . الحب . لا وجود للخطوط المستقيمة في طبيعة الأشياء . كل شيء كما أراه الآن يتقاطع وقد يتوازى طويلاً ، ولكن لا وجود للخط المستقيم .

***

انحسرت عني الموجة قليلاً وأشعر بانتعاش . الساعة ٢ إلا ربعاً وسأنتهز الفرصة قليلاً قبل أن تلطمني موجة ضياع جديدة .

تقول الأغنية :

« أحاول ، تحاول ، نحاول

أن نجعل هذا العالم أفضل . . . »

هراء . لا شيء . لا جدوى من أي شيء ، وكل محاولة عبث . **« لن ينتهي البؤس من هذا العالم »** كما قال **« فان غوغ »** وهو يحتضر . .

أكرر محاولتي لتدخين سيجارة . لا أدري كيف تمزقت بين أصابعي والتبغ يبدو مثل غابة من القصب الجاف . وخفت قليلا ثم تذكرت أنني تحت تأثير المخدر . **(فقط كان هنالك شريط تسجيل أبحث عنه وما زلت أفعل قليلاً ثم أنسى ، وقد نسيت عن أي شريط أبحث لكنني أبحث) .**

أسمع أصواتاً ما خلف الجدران . حواسي مرهفة جداً . أنتهز فرصة انحسار الموجة عني ، لأقوم ببضعة أشياء عملية . أفتش عن نظارتي طويلاً ثم أجدهما فوق شعري ! . . جريجوري يزداد شقرة وعيناه في غاية الزرقة ويقول لي وهو يتأمل البحر :

العاصفة قادمة .

إنه فعلاً مثل كائن من الطبيعة الحرة وتعامله معها مباشر وأصيل . لقد ولد وعاش في منطقة البحيرات ببريطانيا حيث عاش شيللي وكيتس . . . لعل كيتس كان يبدو مثله أزرق العينين بنفسجيهما . .

***

عادت موجة النار الملون . . . عاد ذلك الألم يخترق احشائي . لعلي ابتلعت كمية من المخدر أكثر مما يجب . فأنا نحيلة ووزني ٤٥ كيلو وقد أخذت كمية معادلة لما أخذ جريجوري ووزنه حوالي ٧٥ كيلو . . .

لولا ذلك الخنجر في احشائي لكانت الرحلة ممتعة جداً ولكن خنجراً إضافياً لا يهم . . جسدي حامل خناجر غرسها فيه أعز الأصدقاء والأحباء طوال سنوات عديدة . . . أتذكرهم بوجوه وأضحك . .

***

الساعة ٢ وعدة دقائق . أرتجف . أشعر باستمرار بالأبواب تُفتح ويدخل منها حضور ما بلا جسد . حضور يثقل أحياناً على صدري وأحياناً يبهج نفسي . لا ألم الآن . أنا في ذروة موجة نشوة . رأسي يطير بي . أنا سحابة ، جزء من هذه السماء الرائعة الاصطخاب ، إنها العاصفة . (وأخيراً وجدت الشريط الموسيقي الذي كنت أبحث عنه منذ الصباح وحاولت إدخاله في موضعه بالآلة ، وفشلت لارتجاف يدي ، وساعدني انتوني) . اشعر ببرد مفاجىء . لا تزال الألوان تهاجم يدي وأنا أكتب وتنبت فوق الورق ، وفوق كل ما أنظر إليه أو ألمسه وتتكاثر حين أغمض عيوني . سأحزن حين ترحل الألوان لتخلف العالم من جديد كما كان ، بلا نبض ملون ، ولا حياة خافقة مستقلة في الاشياء . . هذا العالم الزاخر بالنبض الناري يأسرني . تأتي الموجة . إني حارة وملتهبة . سأرحل معها . الساعة ٢ وربع ولا أصدق كيف انقضى الوقت . أكرر اللعبة : أغلق منافذ « جسدي - القلعة » وأرفع السلالم عن أسواري وأنحدر الى الداخل الى القاع الى القبو وأعاود حفر ثغرة وأخرج منها الى غابة الجنون وأركض مثل اليس في بلاد العجائب ثم أتعرى وأرمي بنفسي في بركة الشيطان وأسبح بلا خوف وأئن . . .

أفتح عيني . عند قدمي ٣ شمعات جميلة . يقول لي جريجوري : أنت ملكة الجحيم ، والشموع ثلاثة ملوك يغازلون رفضك ويتحدثون إليك . . .

كضربة صاعقة على مؤخرة رأسي تأتي موجة النار الملون الجديدة . الألوان تشتعل راقصة والسطور تتماوج وتتوهج كأنما هنالك مصادر إضاءة سرية تسلط فجأة على الاشياء أمام عيني وتنطفىء فجأة . . عاد ذلك الدم الحار يتدفق في عروقي وصدري ، وذلك الألم الشبيه بالألم عاد الى أحشائي ، وفي داخلي طاقة مروعة عليّ استغلالها . . . سأحاول الاتصال بصديقة غالية ماتت منذ زمن ما . . . سميرة عزام . . . (ستائر ترفع في قصور مهجورة ويدخل النور الى زواياها . ما أجمل قناطرها ! سقوفها من « العقد » الهندسي العربي ، وسميرة خلف الستارة وأرفع الستارة وأراها بوضوح وتفتح فمها لتقول شيئاً وأمد يدي اليها) . . .

جريجوري يوقظني بصوته ويحدثني عن « هربرت هوفمان » وذاب القصر والستائر وسميرة !! . . . .

***

تعبت من وحدتي . أنصت لجريجوري . أتمنى أن نطير معاً لكنني في أعماقي أعي أن طيران شخص مع الآخر وهم مستحيل ، وقارب الذات لا يتسع إلا لشخص واحد وحيد ، إذا كان مصراً على الإبحار الى بحيرة الشيطان المرمية بين الكواكب ، أو في قاع النفس البشرية السرية الاعماق .

***

أشعر بسلام كلي عذب لولا الخنجر في أحشائي . أرتجف ولكن حين أرحل بعيداً عن جسدي وألمي الجسدي ، فالألوان لا توصف والرؤ يا مذهلة الاضاءات والومضات . . . إنه عالم الداخل الذي لم تخلق اللغة له ، وعبثاً نحاول أن نطاله ، وكل بؤس الفنانين وحزنهم هو لوعيهم بعنة اللغة أمام الاعماق البكر أبداً . . .

ما أجمل ما يدور في هذه اللحظة في داخلي . كل تلك الموسيقى والألوان والحياة والسلام . . لو يدخل معذبو الارض الى أعماقي ويشهدوا روعة هذا العالم المسحور ، لنسوا كل الأوجاع والأحزان وألاعيب الحياة اليومية الصغيرة . . المأساة أن هذا الكون المذهل موجود داخل كل واحد منهم ، وكثيرون يموتون دون أن يدروا به ، والذين يعون وجوده لا يجرؤ ون على اقتحامه . كل المؤ سسات والاديان وجدت لتحريم الدخول الى حرَم الاسئلة المسعورة كنحل مجنون ، والسباحة في بركة الشيطان . . . ها قد جاءت الموجة . الخنجر في احشائي ولكن لا يهم ، سأرحل الآن الى ذلك العالم البهي ، الأزلي الالوان والضياء ، الذي لا يمكن للغة أن تحيط به أو تصفه ولانضم اليه كعودة قطرة الماء الى

النبع (الكتابة الآن فعل استشهاد . إني مرهقة جداً وأتألم وسينفجر رأسي والساعة الثالثة) . نقطة مخدر أخرى آخذها ستقودني حتماً الى الجنون أو الصراخ والانهيار على مدخل أول مستشفى . ضوء الشموع الباهت ومن خلفه السماء الساطعة محزن ومؤثر ، وكم نستعيض بالشمعة عن ضوء الشمس المحرم علينا ، نحن سكان كهوف المحرمات !

***

جريجوري الرائع . يقرأ مقاطع من الانجيل ، ويبدو بوجهه الاشقر الشفاف كالمسيح في أحلام طفولتي . . . يقول في انجيل متى - الفصل السادس - الآية ٣٣ - ٣٤ (سألته عنها لأسجلها فقد أعجبتني) :

« فلا تهتموا بشأن الغد

فالغد يهتم بشأنه

يكفي كل يوم شره . »

***

إني وحيدة وحيدة . كلاهما ودي ورقيق يحاول مد جسر الى عالمي . يخشيان عليّ من تجربتي الأولى مع الغربة اللامتناهية . لا يعرفون أن أمي اسمها « الغربة » وأبي اسمه «التشرد» وأنني ولدت على ندفة ثلج ذابت تحتي قبل أن أتعلم المشي ! . . مستحيل مد جسر . مستحيل الحوار . مستحيل العناق . مستحيل الجنس . مستحيل الالتصاق . رأسي يصطدم بحاجز زجاجي كلما مددته لأقبل جريجوري . لو أنتزع رأسي من مكانه ! ربما كان رأسي هو الحاجز . إني وحيدة وفي حاجة الى الاتحاد برجل ما بقدر ما أرفض ذلك ، لأنني أعرف سلفاً انه لا يجدي . لا أحد قادر على اختراق حصار أسوار العزلة . .

***

إني أبحر مع الموجة الى الماضي . . (أحاول أن أتذكر الرجال الذين عرفتهم في حياتي وأتذكر هل انكسر الحاجز ولو لمرة . أشعر انني مثل نافذة تحاول أن تتذكر القطارات التي مرت بها وأمامها ، وأن الأمر لا يعنيني حقاً بقدر ما أدّعي . وكل ذلك الحب الحب الذي غمرني به عشرات الرجال أحسني أنفضه (وأهرّه) عن جسدي مثل الريش المتطاير في الفضاء بينما أنا أمعن طيراناً بعيداً بعيداً الى أصقاع الحقيقة والغربة) .

يقرأ جريجوري في الانجيل - الفصل السابع - سورة ٣ :

« ما بالك تنظر القذى الذي في عين أخيك ولا تفطن للخشبة التي في عينك ، أم كيف

تقول لأخيك دعني أخرج القذى من عينك وها ان الخشبة في عينك » . . . افكر بالذين قد يعرفون بأمر سباحتي في بركة الشيطان . سيروعهم الامر ، سيسارعون الى إخراج القذى من عيني ، ولا يرون الخشبة في عينهم ، وهم دائمو الاقامة على ضفاف بركة الشيطان . .

يتابع جريجوري القراءة بصوته الساحر . كيف يستطيع ان يقرأ ؟ يدهشني ! حاولت أن اقرأ . الكتاب كالبحر . الصفحات أمواج ، والقراءة على الموج أتقنها ولكن . . .

يتابع القراءة : « ولا تلقوا بجواهركم قدام الخنازير لئلا تدوسها وترجع فتمزقكم » . . .

وأتذكر جواهري . . . والخنازير . . . وأشعر بأنني فراشة بين سيقان قطيع من الافيال ! . .

* * *

أكف عن التفكير في الماضي ، لكن لذعة خاصة تظل في حلقي . أشعر انني كنت دائما امرأة تحاول أن تدق وتداً في موجة ! . . حكاية عمري كلها في سطر هي : محاولة دق أوتاد في الامواج !

هذا المخدر يقوي القدرة على الاستشراف الى حد عجيب . حمل جريجوري جريدة « الديلي ستار » ولم يفتحها منذ جاءت صباحاً . قلت له : ما دمت قادراً على القراءة ؛ لماذا لا تقرأ لنا الجريدة ؟ قال : أحس أن فيها دماً كثيراً وصور قتلى .

فتحناها وكان ذلك صحيحا وذهلنا . وتذكرت حادثتي مع البراد وقطعة الجبن التي حدست وجودها حتى قبل أن أفتح كيسها ، وحادثة انتوني مع الاوراق التي كان يبحث عنها ثم شاهدها داخل حقيبة دون أن يفتح الحقيبة . هذا المخدر ينبه حاسة منسية مجهولة مهملة في الانسان العجيب المليء بالاسرار . . .

* * *

ما زال الألم في أحشائي لكنه بدأ ينحسر . ما زلت مبطوحة على الارض . أتأمل الموكيت الذي هو عادة ميت ورمادي . أراه مثل الجسد الحي ، مثل كائنات من الدانتيل الرمادي ، أجسادها مثل أشكال بلورات الثلج ، وهي تغلي أمام عيوني وتتوالد وتتكاثر . . أخاف وأصرخ . أنا الآن خشبة في نهر تطفو ويجرفها التيار وتتأمل الاشجار الحية الراسخة على الضفتين . .

* * *

إنها الرابعة إلا الثلث ، وأنا لا أزال (منبطحة) على بطني فوق الأرض، مرمية في مكاني منذ ساعات ، ولا أدري كيف ينقضي الزمن . . . حفنة رمل هاربة من رأسي عبر

عنقي الى أخمص قدمي . ما زلت تحت تأثير المخدر . أي انني عاجزة تماماً عن التصرف بشكل اجتماعي سليم (أم أن تأثير المخدر بدأ ينحسر ما دمت ألحظ عجزي ؟) . . . إذا دخل رجال الشرطة الآن مثلا فلن اتمالك نفسي من الضحك من ملابسهم ! . .

***

الرابعة ، والموجة تروح وتأتي . . . صارت أشبه بدفقة حرارة ، واضواء سائلة في الجسد المتواصل مع نهر الكون ، وهذه الدفقة الحارة الملونة الملتهبة المتأججة متحركة باستمرار مع تلاطم الفضاء الممتد فيّ . . الألوان ما زالت ترقص على كل ما تقع عليه يدي أو عيني أنا «ميداس» الألوان الحية . أزرق . بنفسجي . أخضر . برتقالي حار حار آه تعبت كفى كفى . . .

***

الرابعة والربع . أتأمل البحر . عادت العاصفة وأنا في حالة صحو نسبي . لا أفق ، السماء والبحر متصلان متمازجان كما كل شيء في هذا الوجود .

هنالك رجل واحد يسير وحيداً في العاصفة راكضاً على الشاطىء نحو البحر في ثياب رثة . . إلى أين ؟ ولماذا ؟ قال جريجوزي ضاحكاً : « ربما ليلقي نظرة ! » . . . أقنعني التفسير . هذا بالضبط ما فعلته طوال النهار اليوم ، لألقي نظرة على داخلي رغم عاصفة المخدر الموجعة . كل حيوانات الطبيعة اختبأت من العاصفة إلا هذا الرجل الخارج « ليلقي نظرة » . ربما لذلك وحده الانسان هو حيوان الطبيعة الذي يتعاطى المخدر أحياناً ليلقي نظرة على داخله ! . . إنه مثلي شريد في العاصفة والحيرة . . .

***

الخامسة تقريباً ! إنه الغروب ، ومع ذلك لا أزال أرى السماء الرمادية مثل أول فجر في التاريخ . . نعم أقرر أنه الفجر . ثم كيف يمكن للغروب أن يحلّ وأنا لم أعش هذا اليوم حقاً بالمعنى الارضي الزمني للكلمة ، بل أبحرت جيئة وذهاباً في أفق الزمن وتجولت خارج قيوده . . . فلماذا تسري قيوده عليّ كما تسري على بقية الناس ؟ . .

***

الخامسة والنصف .

يا الهي كيف مر الزمن ! لا أصدق ذلك ، مثل رجل خارج من غرفة العمليات بعد تبنيج كليّ . الألوان المذهلة بدأت تذوب ، ولم يبق منها غير بقع صغيرة تروح وتجيء فوق

السطور كالذكرى الحزينة ، مذكرة بمجد البروق الملون الذي كان . . ومضى . . .
انحسر المخدر تقريباً . . . والسطور لم تعد متماوجة . عادت سطوراً متوازية ومستقيمة كما يريد لها اساتذة المدرسة ان تكون .

أنا لن أعود قط كما انا .

أكثر من أي لحظة في حياتي وعيت اليوم كم أنا وحيدة وكم كنت دوماً وحيدة . . .

من الدفتر سقطت كمية من الصور . . صور هذا النهار . . لحظات مسروقة من الزمن . . استطعنا سرقتها وتثبيتها على الورقة :

اتحسس وجهي بيدي . ما زال يبدو غريباً عني ، تماماً كوجه مبنج لقلع ضرس ! . .

***

الشموع شارفت على النهاية .

يقول جريجوري : إنها جميلة فعلاً .

وفعلاً كانت جميلة أكثر من أي لحظة طوال النهار . ما هذا السحر الذي ينبثق من الاشياء قبل لحظة النهاية . قبل الاحتراق الأخير ـ في البشر ، في الاشياء ، وحتى في الدول . . (تذكرت ابن خلدون الذي تحدث عن التهاب الدول وازدهارها الموقت والعابر قبل سقوطها النهائي) .

***

جاء جريجوري يضمني مهنئاً بسلامة العودة من الرحلة مصحوبة بكل اعضائي دون أي حرق أو كسر ! . . .

التمع البرق مثل « فلاش » وضحكنا وهو يقول لي : إنهم يصوروننا في السماء !! . . .

***

جائعة . جائعة . وبعدها سأنام مئة عام .

لا تصلبوني من زعانفي ! . . .

قلت للطبيب : بل افضل اجراء العملية بعد تخديري كليا . . .

قال بدهشة : تخدير كلي من اجل عملية بسيطة تكاد لا تحتاج الى بنج موضعي ؟

تخدير كلي من اجل اللاشيء ؟ هذا أمر لم اسمع به طيلة حياتي . . . هل تعرفين معنى البنج الكلي ؟ انه بحاجة الى مستشفى ، وقاعة عمليات ، وطبيب خاص للتخدير ، وجيش من المرضات ، وخمسة أضعاف الكلفة العادية ! . . . وستدخلين في تاريخ الطب كأول انسان يخدر كلياً لأجل هذه العملية التافهة !! . . . .

قلت : إنني أصر على البنج الكلي ، وسأدفع التكاليف .

قال : ولكنني أخجل من إجراء عملية تافهة كهذه مع تخدير كلي ! . . انك تحرجينني مهنياً .

قلت : اعرف انني كمن يستأجر طائرة فانتوم لنقل أرنب الى سيرك لكنني أصر . أصر متوسلة !! (لم أجرؤ على القول بأنني أرغب في تجريب مشاعر الانسان في لحظات السقوط في الغيبوبة ولحظة الخروج منها . . . الى أين نذهب أثناء الإغماء ؟ وماذا يحدث (للروح) عندئذ ؟ لم أجرؤ على قول ذلك كله . . ولا سواه عن فضولي نحو تجريب كل شيء !) .

. . . وقال لي الطبيب السويدي قبل تخديري يحدثني عن بلاده وجمالها الطبيعي وسهوبها وجبالها ووديانها : فكري بشيء جميل . . . فكري بالانهار . . . بالجبال . . . بالبحار . . . بعالم تحبينه . . .

ومع وخزة الابرة بدأت تجربة جديدة مثيرة لم أذق لها طعماً من قبل . . . انطفأت كل اضواء غرفة العمليات ، وكل الوجوه التي كانت ملتفة حولي ورحلت الى حيث لا أدري ولا أحد يدري . . . كل ما أذكره هو حس بالضيق لأن الكرة الارضية تدور ولأنني مقيدة إلى أحد جوانبها لسبب مجهول ، وخيل اليّ أن ذلك سوف يدوم الى الابد ، ولم أكن أحس في تلك اللحظة بماهيتي البشرية أو بأية ماهية ، وانما غمرني شعور غامض بالضيق والرعب والسقوط في فخ من العذاب الرتيب الذي لا نجاة منه ، والدوار الذي هو أقرب الى السقوط المتوالي منه الى الدوار . . .

ثم بدأت أعي انني سمكة ، ولكني مقيدة إلى الكرة الارضية وأريد أن انطلق منها وأن يفك أسري لأعود الى البحر ، الى البحر اسبح في البحر الواسع الحنون ، ولم يكن البحر في خاطري زرقة أو أمواجاً ، وانما كان سائلا حنون الدفء شاسع الاتساع ، فيه وحده أجد الحرية التي قضيت عمري ابحث عنها . . . وللحظات شعرت انني سمكة وطليقة وحرة واسبح باسترخاء مذهل المتعة ، ثم بدأت أميز أصوات العالم الخارجي وبدأ معه عذاب الوعي فقد سمعت الممرضة تقول أنه يجب منعي عن تحريك يدي كي لا انتزع منها ابرة السيروم (علمت فيا بعد ان ضغطي هبط قليلا ، فاضطروا لتغذيتي عبر إبرة تثبت في الوريد وكل هذا من اجل عملية صغيرة تافهة كانت نكتة المستشفى يومئذ)* سمعتها بالضبط تقول أمسكوا يدها . وصرخت بأن لا يد لي وانما زعانف فأنا سمكة .

* عملية إزالة حبة صغيرة في الجفن (شحاد) - (جنجل باللهجة الشامية) ! . . .

وصرخت أطلب منهم أن يتركوني اسبح بسلام ، ولا يصلبوني من غلاصمي وزعانفي ثم سمعت صوت رجل أحبه واحسسته سمكة مثلي ، وطلبت منهم أن يتركوني أسبح وإياه بحرية ، ثم بدأت أزداد وعياً بأصوات الذين يتحدثون حولي ، وبجسدي وبماهيتي البشرية ، وادركت مرة واحدة من انا وما أنا وتذكرت لم أنا هنا وانتهى الحلم المدهش ، والتجربة الجديدة المثيرة .

وهنا لا بد لي من شكر صديقتي التي كنت قد رجوتها حمل مسجل صغير ، سجلت فيه (تصريحاتي المائية) أثناء صحوي التدريجي من البنج . . . لقد سمعت الشريط وتذكرت يقيني المطلق لحظتها بأنني سمكة . وتذكرت أيضاً بحزن حادثة جرت في لندن أيام دراستي وكنت في السابق أضحك منها . . .

كنت وأخي ومجموعة كبيرة من رفاقنا بالجامعة نسهر ونحتفل بعيد رأس السنة ، حين جاء احد الرفاق بمكعب صغير من السكر . وقال إنه استطاع ان يصنع خلسة في المختبر الجامعي قليلاً من الـ (ال . اس . دي) المخدر المشهور ، وانه يعرضه لمن يريد أن يجربه . . . ولما رفضنا جميعاً (نعمة) عرضه ، ابتلعه مغتاظاً وبدأ يعب الخمرة ثم صار يقول إنه طير ، وهجم الى النافذة ليقذف بنفسه منها كي يطير ، وهجمنا نمسكه فازداد شراسة ، وتخلص منا بقوة عجيبة ، وركض الى سطح البيت وكلنا نركض خلفه ، ثم رمى بنفسه الى الهواء يريد ان يطير وكان صوته مقنعاً (كصوتي في التسجيل وانا مقتنعة بأنني سمكة) ولكنه سقط على الارض وتحطم أمام عيوننا جميعاً ومن يومها وانا اسميه عباس بن فرناس الانكليزي ، واتذكره وأخي على سبيل التندر . . مع غصة من الحزن والاسف .

اليوم ، وقد جربت بعضاً من طعم التخدير ، أحزن عليه بصدق بعد سنوات من مصرعه . وأعتقد أن عالم التخدير وضحاياه بحاجة الى رؤ ية جديدة ملؤها التفهم والحنان . . . ولكن كيف ؟ .

بإرغام القضاة على تجربة (تخديرية) واحدة ، تكون بعضاً من قسمهم لتأدية واجبهم ؟ . . .

بسوق الجميع الى تجربة (تخدير إجبارية) ،لنكون أكثر قدرة على فهم أولئك المعذبين بيننا ، الذين يتكاثرون يوماً بعد يوم ويتضخمون ؟ . . . ويغرقون في عوالم المخدر بكافة أنواعه ؟

أم بالكف ـ على الاقل ـ عن طرح مآسيهم للتفكهة أو للاثارة أو للتشهير ؟ . . . ودراستها بحنان ، علمياً ومن الداخل ؟ . . .

الجنـــون

« الذين يملكون بصيرة إلهية ، هم غالباً بحالة عمى ، حينما يتعلق الأمر بشؤون تفاصيل الحياة اليومية الاجتماعية » .

ـ ماري ستيوارت ـ

« كل عمل خلاق يتضمن رؤيا جديدة البراءة ، متحررة من شلال المعتقدات السائدة » .

ـ آرثر كوستلر ـ

« للدماغ جبال ، صخور شاهقة ، ووهاد سحيقة القرار ، مخيفة ، مبهمة ، لم يسبر غورها إنسان بعد » !

ـ جيرارد مانلي هوبكنز ـ

« اننا نعيش وعياً جديداً بحقائق منسية . . وفي المستقبل ، سيؤرخ الجنس البشري لبداية عصر العلم الروحاني النفساني قائلين إنه عام ١٩٧٠ » .

ـ ويليام تيلر ـ

٥/٧/١٩٦٨

المجانين هم الاقلية العاقلة في عالمنا المجنون

في إحدى كليات جامعة لندن ، كان البروفسور الكبير جداً ، سناً ومكانة ، يعدد لي أسماء بعض المراجع ، حينما سقطت نظراتي على كتاب معين فوق منضدته بين أوراقه وكتبه ، وكدت أشهق دهشة وذهولاً(يا الهي . . . هل يمكن لبروفسور مثله أن يقرأ كتباً جنسية رخيصة كالمراهقين) . . .

لم أعد أسمع ما يقول . . . كنت أتأمل غلاف الكتاب وأنا عاجزة عن التصديق . على الغلاف امرأة ورجل . . . عاريان تماما في غابة . شعرها الطويل متصل بالخضرة والأرض . . . متلاحمان في عناق غامض ، وفي عيونهما رعب وخشية . . . في تماسكهما حس بالحركة ، يسمر أعين الناظر اليهما ، اذ يتوقع أن يتحركا فجأة على الورق في لقاء جسدي مثير . . .

ثم اسم الكتاب ، رمزي رخيص ! « عصفور الجنة ومبادىء التجربة* . . . » !! . . تأليف الدكتور لينغ !

رفعت نظراتي عن الكتاب ، وكان فيهما بلا شك اتهام صريح مفجوع . . . (إذا كان لا بد له من ان يقرأ كتباً كهذه ، كالمراهقين ، فليخفها تحت وسادته كالمراهقين أيضاً) ! . . .

طبعا لاحظ أنني اتأمل الكتاب . سألني بسرعة كما لو كان من المفروض أن تكون نسخة منه تحت وسادتي : هل قرأته ؟ . . .

كدت اصاب بالسكتة الفكرية (يا إلهي . أية مفاجأة . . . لست ضد أن يغازلني ، لكنني ضد هذا الاسلوب) . .

« شكراً » . قلتها بسرعة وأنا اتأهب للهرب .

بحزم اكاديمي جمدني : « سألتك هل قرأت هذا الكتاب ؟ » .

---

* كتاب عصفور الجنة
THE POLITICS OF EXPERIENCE AND THE BIRD OF PARADISE
(تأليف الدكتور لينغ R.D. LAING) ـ منشورات بنغوين

رددت « لا احب هذا النوع من الكتب ، ولا أريد أن أقرأه » .

وبالحزم نفسه قال « إن موقفاً كهذا أمام أية لجنة فاحصة ، يكفي لحرمانك من المقعد الجامعي . أن تقيّمي كتاباً لم تقرأيه » . . .

(تذكرت أنهم في اسبانيا اصدروا قانوناً بسجن أي ناقد يثبت انه كتب حول كتاب لم يقرأه . . أتخيله سجناً مع الاشغال الشاقة الادبية : أن يُرغم على القراءة !) .

قاطعني : هذا جزء من لوحة للفنان جيرونيموس بوش كبير مؤسسي السوريالية في الفن - وموجودة حالياً بمتحف مدريد . من الغريب أن لا تعرفيها ، فالثقافة وحدة لا تتجزأ . . .

وهذا الكتاب هو لأحد تلامذتي السابقين . . هو اليوم أستاذ زميل ، وعبقري سوف يخلده التاريخ الانساني . . . يجب أن تطلعي عليه . .

خرجت بالكتاب خجلة ، إذ كشفت للبروفسور مرة واحدة عن عقدتين تتحكمان في مجتمعنا العربي : الجنس . . . والثقافة العرجاء غير المكتملة من النواحي الفنية والموسيقية .

طبيب أم مجنون أم شاعر ؟

لم تكن مفاجأة الغلاف المفاجأة الوحيدة . ففي الكتاب بلا شك أكثر من مفاجأة فكرية مذهلة تشد القارىء إليه . . .

فالمفروض - كما في مقدمة الكتاب - أنه يدور حول مداواة الجنون بوجه عام ، وانفصام الشخصية بوجه خاص (الشيزوفرانيا) . . وأكثر ما يطمع به القارىء عادة من كتب كهذه ، أن تعلن له عن اكتشاف عقار جديد لمداواة هذه الأمراض . . . دواء هو عادة حصيلة ما توصل إليه التقدم العلمي بفضل الاختراعات الحديثة كالذرة وغيرها . . .

أما أن يجد بدلاً من هذا كله كتاباً يدافع عن الجنون ، ويروّج له ، ويأسف للذين يشفون منه . . . فتلك بلا شك مفاجأة . . .

الدكتور لينغ لا يصف علاجاً لشفاء الناس من الجنون ، وانما يبحث عن علاج لشفائهم من العقل ! انه ليس حزيناً من اجل المجانين ، وانما هو حزين لأن الافراد العاديين فخورين بظنهم انهم عاقلون ! . . .

الدكتور لينغ لا يتحدث عن المجانين داخل المستشفى وانما عن عالم المجانين خارج المستشفى . . . وهو ليس فخوراً - كبقية الاطباء عادة - بتقدم الوسائل العلمية في معالجة المجانين ، فهو يرى في جنون التطور العلمي أهم أسباب الجنون المعاصر .

طبيب نفساني يطبق الاساليب العلمية هو في نظره موظف للتعذيب في مستشفى ! . .

الطبيب النفسي الحقيقي يجب ان يكون مجنوناً متقاعداً !! أو مجنوناً محترفاً !

إنفصام الشخصية بالذات ، هو جنون هذا العصر ، وكلنا مصاب به بدرجة أو أخرى . . ولكن العباقرة فقط ، والمناضلين السياسين ، والمثاليين ، والمؤمنين ، والاذكياء والمرهفين هم الاكثر تعرضاً للصحو الكلي : الجنون . . أما الناس العاديون ، فهم أقل تعرضاً لهذا الصحو ، لأنهم لا يرهقون أنفسهم بالتفكير ، ويتبنون آلياً المواقف الاجتماعية السائدة ، ويقصرون وجودهم على التكيف معها ! . . وفي رأيه أن المدينة الحديثة سائرة الى الدمار لا محالة ، لأن الناس يكرمون رائد الفضاء اكثر مما يكرمون المجنون !! (المجنون بنظره هو رائد أعماق الفضاء الانساني والنفس البشرية) .

ثم تأتي مفاجأة الكتاب الاخيرة الرائعة ، والتي أتركها حتى نهاية المقال (لا من اجل إثارة فضول القارىء على طريقة المسلسلات البوليسية ، وانما لأن شرح آراء الدكتور لينغ ضروري جداً قبل الاعلان عنها !) . . .

ولا شك في أن آراءه هذه ، تبدو للوهلة الاولى أقرب الى الهذيان او إلى الشعر . . ككل الافكار الجديدة . . لكن سر عظمة الكتاب تكمن في أمر واحد : هو ان الدكتور لينغ لا ينجح في اقناع القارىء بما يقول فحسب ، وانما يدفع به الى ان يتمتم بين صفحة واخرى : « يا الهي . . كأنه يتحدث عني » . . . أو الى القول « هذا صحيح . . . لقد كنت دوماً أشعر به ، والدكتور لينغ يقوله بالنيابة عني كما لو ان صوته يخرج من دماغي انا . . . »

ويخرج القارىء من الكتاب مقتنعاً بأنه مجنون ، وفخور بقناعته تلك ! . . أومقتنعاً بأنه « عاقل » ، وممتلىء بالخجل لذلك !!

أديب أدركته حرفة الطب !

نظرية الدكتور لينغ على غرابتها ، تصبح عادية بل وبديهية اذا تابعنا منطقهُ (المبدع أحياناً هو ذلك المفكر الذي يعيد إلى الأذهان بديهيات تم طمسها ونسيانها لسبب ما تاريخي أو اجتماعي) . . .

الفرق بين الدكتور لينغ وبقية الاطباء النفسانيين هو كالفرق بين موقف المبدع الحر ، وبين موقف الموظف الجيد المطيع .

الدكتور لينغ لم يعمل كطبيب على تطوير أساليب مداواة المرضى وانما عمد الى نسف

فكرة « المـرض » من أساسها .

في نظره ، الطب النفسي على طول تاريخه انطلق من أسس خاطئة اعتمدها لتصنيف المجانين ، وحاول (معالجتهم) على ضوئها . . . وانه من الضروري العـودة الى نقطـة البداية : الى تعريف ، من هو المجنون ؟

النظرية القديمة تقول :

المجنون في نظر المجتمع هو إنسان يسلك سلوكاً يختلف عن السلوك المتعارف عليه ، وهو بالتالي ينفصل عن المجتمع ويصبح خطراً في الحالات الحادة ، ولذا يعزل لحماية سواه ومحاولة شفائه .

الدكتور لينغ يقول :

« المجنون ليس مريضاً مصاباً بجراثيم معينة ، اذ ليست هنالك جراثيم (للجنون) أو وباء الجنون ، إذن الموضوع لا يمكن بحثه تحت المجهر واعطائه صفة الحقيقة العلمية الاكيدة . . .

تشخيص الجنون يعتمد على اختلال سلوك الفرد . .

واختلال سلوك الفرد ليس بالضرورة برهانا على اختلال تفـكيره . . . لا العلـم ولا الطب ولا أية وسيلة اخرى تستطيع قط الوصول الى معرفة ما يدور في أعماق أي إنسان ، وانما تحاول (تخمين) ذلك عبر مراقبة سلوكه . . . واذا كان سلوك (المجنون) غير مفهوم لنا ، ولا ينسجم مع منطقنا ، ولا يتكيف مع مجتمعنا ، فذلك لا يكفي لاثبات أن ما يدور في أعماقه قد اختل أو تخرب ، وتجب معالجته لإعادته (كالآخرين) . . ولكن ذلك قد يعني شيئاً آخر : المجنون إنسان اكتشف عبر حادثة مفاجئة عجزه عن تكييف انسانيته مع مجتمع مجنون . . . . (المجنون) بالتالي لا يهدد بقاء المجتمع الانساني ، وانمـا هو أول ضحايا المجتمع اللانساني المتجه نحو تدمير ذاته . . . إنه صفارة إنـذار ليس المهـم هو إسكاتها كي لا تزعجنا ، بل الأهم أن نعرف لماذا انطلقت » . . .

وقد وجدتُ في هذا التعريف تفسيراً لأمر طالما احسسته حقيقياً وانسانياً دون أن أدري لماذا . . . إنه موضوع جنون الضابط الذي ألقى القنبلة الذرية في هيروشيما . . . قرأت ذات مرة أنه جنّ ، ولم أجد في جنونه أية غرابة . . . وأظنني وجدت في نظرية الدكتور لينغ التفسير الحقيقي .

أن يرمي الضابط بالقنبلـة ويعـود الى قاعدتـه كأن شيئـاً لم يكن ، ويتابـع حياتـه العسكرية بسلام هو التصرف السليم من وجهة نظر المجتمع ؛

أما أن يعود الى قاعدته يهذي وقد فقد سلوكه كل منطق متعارف عليه ، فذلك يعني في نظر المجتمع أنه صار مجنونا .

السؤال هو : في أي الحالتين نشعر بأن هذا الضابط أقرب الى انسانيته ؟ في حالة انسجامه مع رمي القنبلة (أوامر المجتمع) ومتابعته لحياته العادية ، أي تكيفه مع هذا المجتمع الذي أمره بإلقاء القنبلة ، أم أنه أقرب الى انسانيته حينما انشق بطريقته الخاصة عن ذلك المجتمع وصار يدعى مجنونا ؟ . . .

من وجهة نظر المجتمع كان سليماً وصار مريضاً .

من وجهة نظر برتراند راسل مثلا ، أو أي فيلسوف انساني ، هذا الضابط كان جزءاً من مجتمع مجنون منذور للدمار ، ولحظة جنونه ، أو ما يسميه الطب التقليدي بجنونه ، كانت لحظة شفاء انسانيته من التكيف مع مجتمعه المريض !! . . .

ازدواج الشخصية ،
مرض العصر !

بعد هذه النظرة الشاملة ، والتي تنسف المفهوم القديم والشائع لمعنى الجنون ، يقول الدكتور لينغ : اذن ، الجنون ، هو وجود فئة من الناس نعجز عن فهم ما يدور في اعماق افرادها لأنهم ـ لسبب ما ـ كفوا عن التعبير عن تجربتهم عن طريق اللغة المتعارف عليها والسلوك السائد . . . وبما انهم الفئة الأقل ، والنموذج الأندر ، لذا فان لقب مجانين ، ليس أكثر من اصطلاح الأكثرية أطلقته على الأقلية ! . . . وهو أيضاً ظلم مارسته الأكثرية (العاقلة) ، لتحمي نفسها من الأقلية (المجنونة) .

لكن الفئة (العاقلة) بدأت تفقد أكثريتها . . . الأمراض النفسية هي مرض العصر الاول ، وهي مرحلة من مراحل (انفكاك) الانسان عن مجتمعه . . . ومرض الشيزوفرانيا ، أو انفصام الشخصية صار أكثر انتشاراً حتى من الزكام .

الطبيب العالم الدكتور لينغ يضع أمام أعيننا هذا الاحصاء :

أن كل طفل يولد في انكلترا ، يواجه احتمال الدخول الى مصح عقلي أكثر بعشر مرات مما يواجه احتمال القبول في جامعة !! . . .

وان خمس الذين يدخلون الى المصحات العقلية مصابون بالشيزوفرانيا . . ونسبتهم في ارتفاع متزايد . .

وهنا يتابع الدكتور لينغ الاديب والمفكر شارحاً مدلول هذه الظاهرة : ألا يعني ذلك اننا ندفع بأولادنا الى الجنون والمصحات ، أكثر مما نقدم لهم (العلم) ؟ أم اننا ندفع بهم

الى (الجنون) بسبب ما نقدمه لهم على أنه (علم ومعرفة) ؟ . .

اعتقد أن في هذا التساؤ ل الأخير الساخر ، تفسيراً جديداً لجانب من أسباب اضرابات الطلاب الاخيرة في انحاء العالم كله . . . انها في هذه الحالة تمثل احتجاج الجيل الجديد على مجتمعات لا يدري بالضبط لماذا يرفضها . . . يحس بأن فيها ما يعتدي على بقائه ويهدد انسانيته لكن فيلسوف هذه المرحلة لما يولد . .

سارتر مثلا فسرها من زاويته الفلسفية ، لكنه لم يكن صوتها ! اؤ من بأن عصرنا في حاجة لفيلسوف جديد .

ثم ان الذين يدخلون المصح ليسوا وحدهم المصابين بانفصام الشخصية ، وانما هم الذين ساءت حالهم الى حد لم يعد معه مرضهم سراً . . . وبيننا ، وحولنا ، آلاف من المصابين ببداياتها . . . بل أن كلا منا تقريباً مصاب بمرض الشيزوفرانيا بطريقة ما ، ومهدد (بزيارة) المصح . . . لذا فإن دراسة تاريخ حياة المصابين به ومجتمعهم أمر ضروري لا لمداواة المريض فحسب ، وانما لمداواة المجتمع المريض الذي اضطره الى الجنون . . . (نحن المهددين بالجنون ، دعونا نحاول شفاء المجتمع المريض الذي يدفع بنا الى الجنون !) .

الشيزوفرانيا : مكسور القلب والروح

شيزوفرانيا تتألف من كلمتين : شيزو ومعناها « مكسور » و « فرينوس » ومعناها « الروح أو القلب » واعتقد أن ترجمتها الى العربية هي : النفس . .

والدكتور لينغ يرى في هذا الاسم القديم خير تعريف للمرض ووصف له ! .

ولكن ، ما هي اعراض الشيزوفرانيا ؟ . . .

ان في ذهن الناس جميعاً صوراً سينمائية مثيرة عن هذا (المرض) العجيب . . .

هنالك حكاية « دكتور جيكل » و« مستر هايد » الرجل ذو الشخصيتين المختلفتين تماماً . . . حينما تظهر احداهما تختفي الاخرى . . .

وهنالك فيلم « حواء ذات الوجوه الثلاثة » حيث البطلة تعيش ثلاث شخصيات مختلفة تمام الاختلاف : طفلة بريئة بائسة ، وامرأة محنكة لعوب ، وفتاة ذكية هادئة . . . ولكل من الشخصيات حياتها المستقلة وثيابها وحتى طريقة تصفيف شعرها ، ولغتها !! . . .

وكل من الشخصيات تريد أن تدمر الأخرى لتسيطر . . . !

وإرضاء للجماهير ومكافأة لها ، عمد المخرج في النهاية الى إنقاذ الفتاة العاقلة بعد

قتل الشخصيتين المتطرفتين (على شريعة خير الامور الوسط) . . . ولكن الفيلم يظل تحت الوسط من الناحية الواقعية . . .

الدكتور لينغ يصف « مكسور النفس » بعيداً عن هذا التهريج . . .

« مكسور النفس » في الحالات غير الخطرة هو أنا وأنت ، وهو رحلة كل انسان داخل ذاته في محاولته الدائمة لخلق التوازن بين الداخل والخارج . . . وهذا في نظر المؤلف أمر ضروري ورائع وإنساني . . والمهم هو أن ينجح الإنسان في العودة من هذه الرحلة ، وأن يظل الاتصال بين حقيقته الانسانية ـ داخله ـ وبين الحقيقة الاجتماعية ودوره فيها ـ خارجه ـ ، أن يظل الاتصال قائماً . . .

أما حينما يفشل الانسان في العودة من رحلته الى داخل ذاته ، أو حينما يرفض العودة ، فانه يغرق ـ داخل ـ ذاته ، ويكف عن تبني السلوك الذي اعتاده ـ خارج ـ ذاته ، أي سلوكه الاجتماعي . . . ويتخذ هذا التشويش مظاهر شتى ، عنيفة أو هادئة أو متقطعة . . .

وقد اثبتت دراسات الدكتور لينغ وغيره من الاطباء على مجتمع المصاب « بانكسار النفس » ، ان جميع المصابين به ينتمون الى شبكة اجتماعية مقطعة الخيوط ، مهزوزة المفاهيم والعلاقات والروابط . (من نتائج دراسة موحدة اجريت في كاليفورنيا ، جامعة يال ، مؤسسة بنسلفانيا للطب النفسي ، والمعهد العالمي للصحة العقلية . . .) . . .

ثبت أن لا علاقة أيضاً بين مرض « انكسار النفس » والطبقة الاجتماعية من أرستقراطية أو عامة . . فهو يقع أينما كانت العلاقات مهزوزة ومشوشة والارتباطات غير حقيقية والطمأنينة مفقودة . . .

ففي مجتمعات كهذه ، يسقط الانسان فريسة مواقف متناقضة مشوشة ، وتتنازعه شتى القوى والضغوط ؛ ولحظات الحيرة المذهولة المرتاعة . . . ويهرب الانسان بحياته من مجتمعٍ ، الحياةُ فيه غير ممكنة . . . إنه يرحل الى داخل نفسه ، ولسبب ما لا يعود . . .

ولذا فإن عزل الافراد الذين « تتكسر نفوسهم » لا يجُدي ، والأهم من هذا كله هو علاج المجتمع . . .

ولأن المفكر والمناضل السياسي والفنان والإنسان المرهف والوحيد ، يواجه عادة هذه الضغوط أكثر من سواه بحكم طبيعته وطبيعة عمله ، لذا فهو معرض أكثر من سواه للاصابة بانفصام الشخصية ، خصوصا حينما يصاب مجتمعه بالانفصام عن تاريخه أو عراقته أو انسانيته ! . . . (هذا التشخيص يرعبني كعربية . . اذ ان فيه وصفا للجو النفسي

لجيلنا ، وفيه شبه تحذير من جيل ليس مصابا بازدواج الشخصية فحسب ـ مثلنا ـ وانما مصاب جدياً بانفصامها إلا إذا داوينا مجتمعنا بالثورة) .

مطلوب طبيب مجنون

كيف نعالج « مكسور النفس » ؟ وما معنى معالجته اذا كان مرضه صحواً ؟ ولمصلحة من نعالجه ؟ . . .

هنا يحمل الدكتور لينغ على أسلوب العلاج العلمي ، الذي يداوي « الأعراض الجسدية » ، تلك الأعراض المرافقة للأعراض الروحية الدفينة في النفس . إنها علاج سطحي مؤقت ، لأن التبدلات (الفيزيولوجية) لدى المريض هي نتيجة لانكساره النفسي ، وليست سبباً إلا في حالات معروفة .

ثم إن أسلوب التشخيص التقليدي ، يزيد في إمعان المريض هرباً الى داخل ذاته (كأن يغرز الطبيب إبرة في مقدمة رأس المريض ،ولا يقول للمريض شيئاً حتى ولا يفسرّ له لماذا يفعل ذلك به !) . . . ان طريقة التشخيص بحد ذاتها وحشية . . .

ما البديل ؟ . . .

البديل هو إنسان يفهم النفس البشرية ، أكثر من فهمه لوظائف الجسد البشري . . . وما دام الجنون رحلة الى مجاهل النفس البشرية ، رحلة بلا عودة ، فان الحل الوحيد هو مساعدة المجنون على العودة من هذه الرحلة . . كيف ؟ أقدرُ الناس على ذلك ، هم اولئك الذين استطاعوا القيام بهذه الرحلة أو ببعضها ، ونجحوا في العودة قبل أن تغوص أقدامهم في مستنقعات الرمال . . . حيث لا عودة . . .

الفنان هو غالباً مجنون محترف ، يغوص داخل ذاته وينجح غالباً في العودة (ربما لهذا نسمع كثيراً عن أدباء أصيبوا بالجنون ، وعن لوثة العباقرة ، وتقول العوام إن فلاناً جنّ لكثرة ذكائه) . . .

وهكذا فالمطلوب إذن هو طبيب ذو مواصفات خاصة : فنان ، ومجنون سابق استطاع النجاة . . . فمثل هذا الانسان يستطيع أن يفهم الى حد ما، ما يدور داخل « مكسور النفس » ، إذ سبق له أن عرف هذه التجربة أكثر من سواه . . ودكتور لينغ يرى في دراسة مذكرات الذين أصيبوا بالجنون خلال غوصهم التدريجي في ظلام المجهول وثيقة هامة . . وفي الكتاب نماذج منها .

أوقفوا هذا العصر المسعور

يختم الدكتور لينغ نظريته بهجوم شديد على العصر . . . ويحُمّل الإلحاد بيقين

المسؤولية كلها . . .

فالبشرية تمر الآن بهزة فكرية إنسانية لم تعرف لها مثيلاً : هي الإلحاد . . . والحاجة الى يقين .

يقول ان الانسان وجد فكرة الله في داخله منذ البداية . انه لم يخترعها بدليل انها كانت أول شيء عبر عنه قبل أي اختراع آخر أو أية معرفة . . اكتشفه مع اكتشافه لحاجاته الاساسية : الاكل . الجنس . . . وغيرها . . . وعلى طول تاريخه الأول كانت مواضيع خلاف الناس حول اليقين تعود الى صورة تمثيله ، في بقرة ، أو شمس ، أو طير أو صاعقة . . .

ثم حدث تطور آخر . . . تم توحيد الآلهة الكثيرة في إله واحد عن طريق الديانات ، الأمر الذي يعطي الناس اسباباً أكثر للتعاون واللقاء والاخاء . . .

أما عصرنا الحالي ، عصر الآلة والحروب العالمية والمادة ، فقد جاء بالالحاد ، ومؤسساته وأنظمته لا تضع في اعتبارها أن الانسان حيوان مؤمن بيقين ما ، وانما تحاول تصنيع المجتمع الانساني . . وهو يستشهد بقول ايفان في الاخوة كرامازوف : « اذا كان الله غير موجود ، يصبح أي شيء مسموحاً ! » وهكذا ، فقد اختل شيء داخل الانسان ، لأن قالب المجتمعات الحديثة لا يأخذ بعين الاعتبار أهم حاجاته الاولية والاساسية : الثورة من أجل يقين ما .

والرب بمفهوم الدكتور لينغ ليس بالضرورة تقليدياً ، انه الحب والقيم والمثل والطمأنينة أيضاً . . وعصرنا سرق الله من الانسان الأوربي دون أن يمنحه أي بديل . . .

لذا ، فهو يعتقد ان « مكسور النفس » هو الذي يبحر بحثاً عن يقين داخل ذاته (القيم والمثل والحب والحقيقة) ولأن الانسان ما يزال طفلاً يحبو في مجاهل النفس وأسرارها ، وليست لديه تجارب حقيقية أو خبرة بها ، لذا فالكثيرون في أوربا يضيعون . . .

من أجمل ما في الكتاب هو امتزاج الشعر بالعلم ، حينما يسأل الدكتور لينغ : لا نستطيع أن نعرف ماذا يحدث للإنسان بعد الموت ، لأن أحداً لم يعدْ ليخبرنا ، ولان الذين يموتون يكفون نهائياً عن أي سلوك خارجي (الحركة . الكلام) لحظة الموت ، وفوراً . . . ولذا نسميها لحظة « الرحيل » . الرحيل بمعانيه كلها الى مواجهة حقيقة الوجود .

والمجنون ، أليس أيضاً إنساناً رحل تقريباً عن عالمنا ؟

ترى إلى أين يرحل ؟

وماذا يجد هناك ؟ تراه يصبح قريباً من (الحقيقة) ، الى حد الاستغراق فيها واحتقار عالمنا ؟ . . . أليس ممكنا أن يكون المجنون إنساناً اكتشف بعضاً من حقائق الوجود ؟ بهذا المفهوم ، الميت يبصر الحقيقة كاملة ، والمجنون هو نصف مبصر في عالمنا نحن العميان . . . .

إذن فالمجانين هم « رواد » الحقيقة المدفونة في أعماق النفس البشرية ، هم « رواد » عالم الروح ، ونحن بحاجة اليهم أكثر من حاجتنا الى « رواد الفضاء » . . إنهم كهنة النفس البشرية . . ولذا ، اذا استطعنا اقناعهم بالعودة إلى عالمنا ، وقبولهم بالحوار العتيق معنا ، فقد يكون لديهم الكثير من الأسرار التي تهدينا الى يقين ما . . وهكذا ، فالمجنون الذي يعود الينا ليمنحنا تجربته ، هو كنصف المبصر الذي يقود أعمى في مجاهل الحقيقة الانسانية .

مفاجأة الكتاب .

بعد هذا كله ، يطلع علينا الدكتور لينغ بفصل طويل من مذكرات إنسان مجنون ، هو نفسه الذي كتبها (!) واسماها رحلة الايام العشرة ، ويقول إن مجنوناً يدعى (جيس واتكينز) أملاها عليه . . . وهو أيضا يحدثنا عن تاريخ حياته ، ومع ذلك يداخل القارىء إحساس غامض بأن الدكتور لينغ هو (جيس واتكينز) بقدر ما كان (الدكتور جيكل) هو (مستر هايد) . . . ولكن مفاجأة الكتاب هي الفصل الأخير الذي كتبه الدكتور لينغ وأسماه « عصفور الجنة » . . . وهو نثر شعري على جانب كبير من العمق والجمال .

والكتاب يؤكد حقيقة رائعة : إن الدكتور لينغ قام برحلة أو بعض رحلة إلى مغاور النفس البشرية . . . وان رحلته تلك كفنان وكإنسان هي مصدر وحيه كطبيب ! وانه بلغة الطب « مكسور النفس » وبلغة المجتمع « مجنون » سابق متقاعد ! . .

ولا أستطيع أن أمر بها دون أن اترجم بعضها ، لأن فيها نكهة خاصة عجيبة . . . فيها تفكك من حيث (المنطق) التقليدي ، انها مزيج مما يمكن أن يقوله فنان ومجنون (بمنطقنا) كأنه يريد أن يشير الى انهما شيء واحد . . والمجنون هو ربما الذي يعرف أكثر ، وهو لذلك يتحدث أقل . . .

يقول الدكتور لينغ : « رجلان جلسا ، أحدهما يواجه الآخر ، وكلاهما أنا . بهدوء ، بدقة ، بانتظام ، يطلق كل منهما النار على رأس الآخر . يبدوان منسجمين . التلف في الداخل . » واخترت من مكان آخر هذا المقطع للترجمة ، وأنوه بأن الترجمة تفسد الكثير من شاعريته .

« ايها القلب المذهول ، أيها القلب المحب الذي لم يحبه احد ، يا قلب عالم مجرد من القلب ، يا قلب عالم يحتضر .

نلعب لعبة الحقيقة بأوراق لعب (كوتشينة) وهمية يحملها كل في يده .

جسد تحلل ، تمزق نتفاً ، صار تراباً مسحوقاً ، اضلاع تتوجع ، قلب ضاع ، عظام تكلست ، أفرغ الدوار في الغبار . . أريد أن أتقيأ رئتي ، الدم في كل مكان ، والمناشف ، والعضلات ، والعظام ، كلها مسعور ومتشنج .

خارج هذا كله كل شيء هادىء ، ساكن ، كما كان أبداً . نوم . موت . ولكنني أبدو في حالة جيدة .

ذلك الصمت المسعور يخمش ويتحرك في الليل . ماذا لو مزقت شعري وركضت عارياً معولاً في ليل الضواحي ؟ سوف أوقظ بعض الناس المتعبين ، وسأعرض نفسي لخطر ادخالي في مستشفى أمراض عقلية . ما جدوى ذلك » . .

والذي يلفت النظر انه صدّر لخواطره بقول المسيح :

« حينما تجعلون الإثنين واحداً وحينما تجعلون ما بداخلكم كالذي تبدونه والذي تبدونه كالذي تخفونه . . .

حينئذ تدخلون ملكوت السموات » .

الجديد : انه قديم جداً !

أبتعد عن جو الكتاب الذكي المشوق المثير في محاولة حيادية لتقويم ما جاء فيه ، وبعيداً عن مفاجأة الكتاب المثيرة : ان هذا الطبيب الكبير مصاب بانفصام الشخصية كما هو واضح في كتاباته !

إن نظرة هذا الطبيب الى (الجنون) من حيث الاهتمام بالعامل النفسي قبل المرض الجسدي ليست جديدة . . وقد وعاها الأدب منذ أقدم العصور وبشكل خاص الدراما اليونانية . .

ثم إن فكرة احتراق الانسان بنار المعرفة ، التي أورد (المجنون) كمثال لها ، ليست إلا تطبيقاً لاسطورة (بروميثيوس) . . . واذا كان الاقدمون قد جاءوا بحكمتهم « العقل السليم في الجسم السليم » ، فان الدكتور لينغ قد طور هذ النظرة الى : كيف يكون عقل الافراد سليماً إذا كان جسد المجتمع مريضاً ؟ . .

والثورة على عالم المادة ، والدعوة للعودة الى عالم جديد نبدع يقينه هي دعوة الثوار في كل مكان .

وفكرة اعتبار المجنون ، العاقل الوحيد ليست جديدة . . .

وفكرة اتخاذ (المجنون) تعبيراً صادقاً عفوياً وبلا اقنعة ، تعبيراً غامضاً عن حقائق يعرفها وحده (ولأنه يعرفها فهو يتصرف بطريقة مغايرة) ، هذه الفكرة صارت شبه موضة في الادب الحديث . .

وهنالك كاتبة اميركية جيدة لا تكتب إلا عن الاطفال أو المجانين لأنها تعتقد انهم وحدهم يحملون الحقيقة الانسانية . . أما باقي الناس فهم أدوات اجتماعية لا تستحق الفضول ، ولا ينم سلوكها عن حقيقتها .

لعل أبرز الأمثلة على ذلك « مجنون فولكنر » في روايته الصخب والعنف . . كان بكاؤه وشهيقه المتواصل ، يرمزان بحدّة الى انه وحده يعي ويعرف أية مأساة هي الحياة حوله .

ما هو جديد الدكتور لينغ إذن ما دامت صرخته تلك واحدة من صرخات الاحتجاج على عصر المجتمعات الاستهلاكية ، وباللجوء الى عالم القيم المنسية ؟ . .

الجديد ، انه تبنى نظرته كأديب في نطاق عمله كطبيب ، وأنه ليس مفكراً حالماً ، وإنما هو أيضاً عالم منفذ . . . إنه « ثائر » بطريقة ما .

واذا كان الاديب يكتفي بابداء نظرته الى الوجود ، فان العالم قادر على التبديل عملياً . . أهميته هو في هذا التزاوج بين الفكر والعمل الذي خرج به علينا . . . كالثوار . .

الأديب اكتفى بالشهادة ، بإعلان مفهومه الخاص للمجنون ، لكن الدكتور لينغ يطبق هذه النظرة على الاحصاءات والحقائق العلمية ويطالب بنسف أسلوب الطب النفسي التقليدي من أساسه ، ويطالب بتطوير وسائل المداواة على هدي تشخيص الاديب والفنان .

ثم إن الدكتور لينغ قد أعاد للجنون (انسانيته) . . فقد نسف المبالغات (الفرويدية) حيث اعتمد فرويد يومها الجنس كتفسير أساسي ووحيد للسلوك البشري وأمراضه من جنون وفن وغيرها . . . .

لقد حول المجنون من (مكبوت جنسياً) الى (مكبوت انسانياً) ، و (مكبوت ثورياً) ، وجعل منه كاهناً أعلى للوجود . .

من يدري ، وقد يأتي اليوم الذي تصبح فيه كلمة (عاقل) شتيمة لا تغتفر ، ويطال القانون صاحبها في بند القدح والذم !

٢٤/ ١٠/ ٦٩

زيارة الى مستشفى (العقلاء) !

تلفتت حولي .

لم أجد لافتة مرسوماً عليها جمجمة وعظمتين تحذر من (خطر الموت) .

لم أجد لوحة تقول : ممنوع الدخول .

لا شيء يشير الى أنني وصلت « مستشفى المجانين » حيث قررت أن أقضي اجازتي لهذا الاسبوع ! . .

لم أجد أمامي سوى لوحة ريفية تفيض الوداعة من كل شيء فيها . . .

رجال . شمس . حقول . بهدوء يعملون . (لعلي ضللت طريقي الى المصح) . تقدمت من الرجال لأسأل . لم أدر ماذا أسأل . تذكرت كلمات الطبيب النفساني ـ الصديق الفنان الذي ساعدني على تحقيق اجازتي الأمنية (احذري رجلاً مثقفاً ، قوي البنية ، يبدو احياناً في هدوء الاطباء . . لكنه حينما يثور يصبح عنيفاً حتى القتل !) . . وأنا أقترب من الرجال لأسأل ، لاحظت أن هذا الوصف ينطبق على اكثرهم . . . وأنهم أشبه بعمال في مزرعة . . . (لا ريب في أنني ضللت الطريق . لعلي المجنونة الوحيدة هنا) . التف بعضهم حولي بفضول . . هنا فقط لاحظت شيئاً مشتركاً في العيون كلها ، دخيلاً على اللوحة المشرقة التي طالعتني للوهلة الاولى .

بريق غير عادي مثل دمعة معلقة في العين لا تنحدر منها ولا تجف .

بريق لوثة ؟ . . لا . أفضل أن أسميه بريق حزن . في عيون الرجال كلهم حزن عميق طفل . حزن . حزن . حزن هو في أحد الوجوه يتحدى . في وجه آخر يرفض . في وجه آخر يسخر . يتوسل . لا يبالي . يثور . يستكين . ولكنه حزن إنساني . تأكدت أني (هناك) . ازداد عدد الرجال الذين تركوا عملهم والتفوا حولي . كانت أول مرة في حياتي أتوسط فيها حلقة من المجانين (وأنا اعرف ذلك !) . لم أخف . لماذا أخاف ؟ (ربما على الداخل الى « الهورس شو » أو « الويمبي » أو بقية مقاهي « المثقفين » أو حتى الى مقر عمله ، أن يخاف ألف مرة ، أكثر من الداخل إلى مصح عقلي . فهو هنا ، يرى

على الاقل ردود فعل المحيطين به حقيقية وصادقة . لا تملق . لازيف . . لا همس تحت الطاولات) . .

اخترت من الوجوه المحيطة بي وجهاً هادئاً ، لشاب ، بدا لي للوهلة الأولى ممرضاً أو عابر سبيل وليس « منهم » فسألته : هل أنت الاستاذ عاطف ؟

- لا . أنا احسان . عاطف هناك . وأشار بيده الى شاب آخر يقف في الممشى الأخير من مدخل الحديقة . . .

وانزلقت من الحلقة البشرية الملتفة حولي ، نحو الشاب فارع القامة المشرف على أحد اقسام المستشفى .

رآني . هرع الى لقائي . قال : إن الطبيب الصديق اتصل به وأبلغه نبأ زيارتي . سلمته رسالة الطبيب ، وفيها أسماء (النماذج) المختلفة التي سأقابلها . . . وتعليماته . . .

غرفـــة التحقيـق

في البداية ، نفذت تعليمات الطبيب الصديق بدقة . قادني عاطف بسرعة الى غرفة مكتبه . . . بدأ فوراً ينادي المرضى الذين اقترح الطبيب أن أتحدث إليهم كنماذج مختلفة (للشيزوفرانيا) أو « انفصام الشخصية » وفقا للترجمة العربية الشائعة . .

وفيما يلي سأنقل حرفياً ما دار بيني وبينهم من حوار :

نادى المريض (افضل عبارة الاستاذ أو الاخ بدلا من عبارة المريض لأنني لم أشعر شخصياً بأنني قابلت أشخاصاً يختلفون عن الذين أقابلهم يوميا في كل مكان . . . المقهى والشارع والسوق وحتى دار المجلة التي أعمل بها !) . . .

نادى على الاستاذ ع . ش . فدخل رجل متوسط القامة رصين الملامح يقترب من الخامسة والاربعين أو الخمسين ويميل الى النحول . . . كان هادئاً ، وبدا عليه السرور لأن هنالك من يسأل عنه ، وكان متحمساً للحوار مع إنسان ما . . . مع أي إنسان . . .

كانت المرة الاولى في حياتي التي اتحدث فيها مع شخص من المفروض انه (مجنون) ! وأنا أعرف ذلك . لم أدر ماذا أقول له . لم تكن تبدو عليه أية عوارض ، تختلف عما أراه في هيئات وسلوك الناس الذين أراهم كل يوم . . ربما لذلك وجدتني أسأله ببساطة : ماذا تعمل ؟ ولماذا أنت هنا ؟ . .

- كنت موظفاً بالحكومة ، أحياناً تحدث لي (نوبة) ويحضرونني الى هنا .

- موظف بالحكومة ؟ من الطبيعي أن تنتابك (النوبات). المريض هو موظف الحكومة الذي لا يصاب بنوبة هذه الايام ! (بالمناسبة ، مع اولئك الذين من المفروض انهم

« مجانين » يجد الانسان نفسه منساقاً الى أن يقول الصدق ، الصدق الذي يحسه وليس الذي يفترض أن يقوله) . . .

ردّ عليّ :

ـ مصائب ولا مفر من أن تقع ! . .

ـ على ذكر المصائب ، هل أنت متزوج ؟ لم يجب . لم يبد عليه أنه يوافق على ما أقول ، ولكنه ليس مبالياً بما يكفي ليصحح لي نظرتي . . ربما هو أيضاً لا يدري بالضبط لماذا لم يعجبه تهجمي على الحياة الزوجية (أما أنا فقد عرفت فيما بعد !) وعدت أسأله : ماذا تحب ؟

ـ احب الحياة .

ـ ما هي الحياة ؟

ـ هي أن تعيشي سعيدة . . .

ـ وما هي السعادة ؟

ـ هي أن تحققي ما تطمحين اليه . يتدخل الاخ عاطف في الحديث ويسأله : ألا يمكن للسعادة أن تأتي عفوا ؟ رد الاستاذ غ . ش : ذلك لا يمكن أبداً .

ـ واذا أمكن ، هل تقبل بها ؟ . .

ـ كنت سعيداً أيام كنت حراً ، قادراً على الرحيل والتجول . . . لقد طفت العالم . . . قضيت أياماً طويلة أتجول من مدينة الى اخرى . . . أما الآن ، فأنا محجوز وحريتي الشخصية مفقودة . .

ـ هل هنالك ما تنتظره ؟

ـ أخي . . انتظر زيارة أخي . . . إنه لم يأت منذ شهرين .

ونهض فجأة ، والتفت الى عاطف قائلا :

أريد أن أستعمل الهاتف .

ـ لماذا ؟

ـ لأهتف لأخي كي يأتي . . أو ابنة اخي . .

بلباقة رد عاطف :

ـ الهاتف في الغرفة المجاورة . اذهب واستعمله .

وخرج الرجل . . .

وسألت عاطف : إنه طبيعي جداً . أعني مثلي ومثلك . لماذا هو هنا ؟ . .

وعدت الى رسالة الطبيب ، فقرأت مزيداً من التفاصيل عن هذا الكهل الضائع ، الذي غادر الغرفة للتو بحثاً عن هاتف يصرخ عبر سماعته ـ ربما المقطوعة الاسلاك ـ لينادي أخاً ربما لا وقت لديه ليسمعه ، وربما هو غير موجود ، وإنما هو رمز العالم الخارجي الذي نسيه .. والعاطفة التي يفتقدها .. يقول الطب : الرجل مصاب « ببارانويد سيكزوفرانيا » أي (جنون العظمة) .

يعتقد انه مخترع ، وأن أحداً لم يول اختراعه الاهتمام الكافي ... (أليس ذلك ممكناً ، أعني أن لا يكون أحد قد أولى اختراعه الاهتمام الكافي ؟ ها نحن امام كهل ، يواجه الخمسين وحيداً بلا أسرة ربما لذلك لم تعجبه سخريتي من الزواج ، متهماً بالجنون ، أي انه تحت المراقبة الدائمة ... الا يمكن لأي منا في ظروف كهذه أن يتصرف مثله ؟) ..

وعدت اسأل عاطف بحسرة : إنه طبيعي جداً ، اعني انه مثلي ومثلك ... لماذا هو هنا ؟

- ......

ـ إنه مثلنا ... ولكنهم اكتشفوا ذلك فألقوا القبض عليه ... إذن الفرق بين العاقل والمجنون هو عجز المجنون عن ارتداء الاقنعة ..

- ......

ـ والكاتب هو انسان يرفض (غالباً وليس دائماً) ارتداء الاقنعة ..

- ......

ـ ولذلك فان نصف الكتاب والفنانين متهمون بالجنون ، ونصفهم الآخر حل نزيلاً في أحد المستشفيات العقلية في فترة ما من حياته .

- ......

ـ نيتشه قضى ١٢ سنة في مصح عقلي ومات فيه .. وهولدرلن استمر جنونه أكثر من ٣٠ عاماً .

- ......

ـ وجيمس جويس كان مصاباً بالشيزوفرانيا .. و « إزرا باوند » كان مصاباً بالسكيزوفرانيا .. وغي دي موباسان أيضاً . وبودلير وفان كوخ عاشا في المصحات العقلية أكثر مما عاشا في الحانات .. وكافكا و .. بهدوء قاطعني الأخ « عاطف » : انهم مثلنا تماماً .. ولكن .. ولأنه عند هذه الـ (ولكن) يجب أن نقف وأن نعيد النظر ،

كففت عن حواري مع نفسي بصوت مرتفع . . ونادى « عاطف » على الشخص التالي : الاستاذ ج . ص .

مزاج بريطاني !! . .

دخل رجل طريف المظهر ، يرتدي قميصاً رياضياً أبيض ، وبين شفتيه بقايا لفافة نصف منطفئة .. وربما هي غير مشتعلة . . ما الفرق ؟ . ربما كان ذلك أسلوبه في الكف عن عادة التدخين !! . .

(يظل . . ذلك أفضل من تناول السوائل التي تجعل طعم الدخان كريهاً في محاولة الامتناع عن التدخين) . . اسم الرجل لا يهم . لنفترض انه جورج . المهم انه يسمي نفسه جورجيت ! واذا نادوه جوزف مثلا فهو يصر على ان اسمه جوزفين . صافحت يده الخشنة وأنا أقول : أهلا جوزفين ، كيف تشعرين هذه الايام . (اكتفت) بأن هزت برأسها . . وماذا تعملين ؟

يرد بل ترد جوزفين بصوت أجش صريح : « أعمل في تجارة الاوساخ » !! . . (كثيرون يعملون في تجارة الاوساخ ولكنهم لا يعترفون . جوزفين على الأقل يعترف ! . . لو كان جوزفين في لندن ، لارتدى الاقراط والثياب المزركشة ولمارس جنونه تحت حماية القانون الانكليزي الجديد . . لكن جوزفين هنا افتضح أمره ، إذن جوزفين مجنون . . يا لرعبي ! كم هي نسبية تلك الكلمات : الاخلاق . السلوك . الجنون . الزوج في الاسكيمو الذي لا يقدم زوجته لضيفه لتنام معه هو رجل خارج عن سلوك وتقاليد مجتمعه . أي مجنون) ! . .

وتركت جورجيت أو جوزفين أو أسموه كما شئتم يتابع عمله في « تجارة الاوساخ » معترفاً على الاقل بما يفعل . .

نيل أرمسترونغ لبناني

واسأل « عاطف » : الكل هادىء وطيب . .

ـ ولكنهم احياناً يصابون بنوبة هياج . .

(من منا لا يصاب بنوبة هياج ؟ لو راقب كل انسان سلوكه ، بالدقة نفسها التي يراقب بها سلوك المجانين ، لتأكد له انه يتصرف مثلهم أحياناً هو أيضاً . .

من منا لا تمر به لحظات يشعر خلالها بأنه يكاد يقدم على جريمة قتل) ؟ . .

نادى عاطف على (استاذ) كل مرضه هو انه يريد الصعود الى القمر . إنه مجنون

بالقمر ! . . وعاجز عن النطق الواضح كأن رغبته في الذهاب الى هناك قد لجمت لسانه . .

مجنون ؟ ربما الآن صار مجنوناً . ربما لو كان في مجتمع متطور تكنولوجياً ، لوجد ما يستوعب رغبته في الصعود الى القمر ، وتحويلها من رغبة مستحيلة تثير جنونه الى رغبة ممكنة تثير جنون العالم لدى تحقيقها . . وطلبت منه أن يرسمني . .

رسمني في كاريكاتور حزين تجريدي كأي كاريكاتور يتفضل برسمه لي احد الفنانين في المقهى . . ولا ينسى أن يمهره بتوقيعه الكريم للذكرى والتاريخ والخلود . . وارمسترونغ اللبناني لم يمهر رسمه بتوقيعه . . ربما لأنه متواضع ، وربما لأنه رجل أضاع هويته واسمه وتوقيعه ، لكنه يعترف بذلك على الاقل !

الطفل المواطن . . اليتيم

يدخل شاب دون ان يناديه عاطف ، يفيض طفولة وبشراً . اسمه (ي . س) . . ولنسمه ياسين مثلا . .

الطب يسميه (ريتاردد منتاليتي) أي مصاب « بالتخلف العقلي » . . عمره العقلي عشر سنوات (ترى كم هو العمر العقلي لمجلس يخطط للحرب والدمار من « اذكياء » العالم) ؟ . .

ـ ياسين ، كم عمرك . .

ـ عشر سنوات . .

ـ ماذا تحب ؟

ـ الاشجار ، وهدى ، وانت ! . .

ـ لماذا تحب الاشجار ؟

ـ لانها تحبني وتتحدث إليّ .

ـ وهدى ؟

ـ لانها حبيبتي .

ـ وأنا ؟

ويخفي وجهه خجلا كالاطفال ، ويهمس في اذن عاطف لماذا يحبني ! . .

فقير ، ينطق بصعوبة . . ضحكاته تشبه البكاء تمتزج بكلماته ، فتستحيل أحياناً الى ما يشبه النواح الغامض والغمغمة غير الواضحة . . شيء ما فيه ، ذكرني بمجنون فولكنر ، ذلك الأخ الأصغر الأخرس في رواية (الصوت والغضب) والذي كان يطلق من

آن الى آخر في الليل صرخات ضحك باك كأنه يبكي الوجود ويحتج على الهول والقرف اللذين يغطيان سحنة العالم . . بكل بساطة لم يعد لياسين أي مطلب سوى أن أرحل معه . . ووعدته بذلك كي أتابع اجازتي بسلام (يا لي من عاقلة ، أي مزيفة . كذبت عليه ووعدته بالرحيل . وصدقني لانه لا يعرف الكذب) ! واكتفى بملازمتي كظلي ، بانتظار لحظة الرحيل . .

الطمأنينة . . . والتجوال

من جديد تذكرت تحذير الطبيب لي من (شاب هادىء المظهر ، مثقف جداً ، يستحيل أحياناً عنيفاً حتى الجريمة) . . وقبل أن اسأل « عاطف » عنه ، أطلّ على الغرفة الشاب الوديع ، الذي كنت قد سألته عن عاطف ، وكان أول من حدثته في الحديقة ، ناديته : احسان . . تعال . . اجلس أمامي . اريد أن اتحدث اليك . .

ـ لا مانع لدي من ذلك . . ولكن ، لماذا تكتبين وتتحدثين في آن واحد ؟ (كنت أسجل ما يدور كما يفعل أي صحفي . كم هو على حق في ملاحظته . لقد لخص ببساطة وصدق الرجفة التي تعتري « المثقفين العقلاء » عادة امام الكاميرا أو الصحافة) . . انفجرت اضحك . .

قلت له : أتحدث وأكتب في آن واحد لانني مجنونة . .

ـ هذا لا يكفي ليثبت جنونك . . ثم ، ما هو الجنون يا سيدتي ؟ .

والتفتت الى عاطف لأسأله هل احسان مريض أم زائر أم ممرض . قال عاطف : الفرق ليس كبيراً على أية حال !! . .

كان قد نادى شخصاً يدعى أ . هـ . . وجهه عادي لولا حزن يطل عادة من عيون الشعراء المتجولين . ربما لذلك اندفعت اسأله :

ـ لماذا نعيش ؟

ـ كي نموت .

ـ لماذا نموت ؟

ـ كي نفسح مكانا لسوانا ! . . هذا كل ما في الأمر . .

(بالمناسبة ، عبارته الاخيرة هذه هي خير ما يلخص القصة القصيرة التي فازت بالجائزة الاولى لأكبر مسابقة أدبية في باريس للعام الماضي) ! . .

يعلق عاطف : خذوا الحكمة من أفواه المجانين . إنه قول صحيح ! . . لا أحد يدري كم هو صحيح الا حينما يعايشهم ! . . بدا لي عاطف مسروراً بعمله هذا . .

سعيداً بمعايشتهم . . وأنا أيضاً . . احسست براحة عجيبة . . (لم أشعر بحاجة الى ابتلاع احد اقراصي المهدئة كما أفعل عادة وأنا في صحبة العقلاء) ! . .

وقررت أن اغادر الغرفة ، وأن أتجول في المصح . . كنت قد امتلأت حساً بالالفة والطمأنينة . .

أمام باب الغرفة انضم اليّ موكب من (الرفاق) الذين سبق وتحدثت اليهم . . وبعد أن التقطنا الصور التذكارية لاجازتي السعيدة معهم ، تابعت جولتي في المصح يرافقني وفد منهم .

وبينما كنا نسير في حدائق المصح وممراته وحقوله ، كان الحوار يدور بيننا جميعاً والضحك يمزق أسطورة العزلة والغربة . .

ـ احسان ، ما هو مطلبك في الحياة ؟ .

ـ العدالة . . والسلام العالمي . .

ـ وماذا تفعل لتحقيق ذلك ؟ . . انه مطلب صعب . . رد علي حرفيا : « وهل يسعد الناس إلا في تشوقهم الى المنبع ، فان صاروا فيه فتروا » . . على رأي جبران ! . .

ـ هل تكتب ؟

ـ أجل .

ـ هل أنت مسلم ؟

ـ المسلم من سلم الناس من قلبه ويده ولسانه ! . .

واسأل شاباً آخر (ط) : وانت ، هل تابعت دراستك ؟

ـ لا . . تخرجت من الحضانة الى التقاعد !! . . . وانفجر البعض ضاحكاً . ولكن لم يبد على إحسان انه مسرور بانخفاض مستوى الحديث الى (الحضانة) ، وعاد الى (رفعه) بصوته الهادىء ولهجته المتزنة : أجل ، اكتب من وقت الى آخر ، وبودي أن اطلعك على ما لا امزقه من بعض نتاجي . .

ـ يبدو انك تفكر كثيراً . .

ـ التفكير كالنهر . . اذا طغى يهدم البنيان . . وأنا لذلك اتحاشى مزيداً من التفكير . .

ـ هل وجدت تفسيراً للوجود ؟

ـ يبدو ان هنالك اسئلة تستحيل الاجابة النهائية عليها ، مثل : من أين ، والى اين . .

ـ هل تؤمن بالله ؟

ـ اجل ! اؤمن بوحدة الوجود ، وبالتقمص الذي هو عملية ارتقاء الروح ! .

ـ أي روح ترتقي ؟

ـ لقد أفلح من زكاها ، وقد خاب من . .

يتابع وحده : لقد جربت الملذات الحسية كلها عبثاً ، فاكتشفت ان السعادة عبر « الابيقورية » محاولة فاشلة ! . .

ـ هل تخاف الموت ؟

قال بالحرف الواحد : احب الموت كما يحب الطفل حليب أمه !! . .

ولذا حاولت الانتحار مرتين من قبل . .

ـ واليوم ؟

ظل صامتا . ربما كان يعني « الصمت » الحقيقي . . (بيكيت ، المسرحي الكبير ، صار خالداً لأنه جسد هذا الموقف في مسرحياته) !

الجنـون العاقـل

وتابعنا طريقنا الى المبنى الرئيسي للمصح الذي يضم ١٥٥ « مجنونا » . قابلت بعضهم ولم أجد بينهم « مجنونا » واحداً بالمفهوم (التقليدي) للكلمة . .

وهنا تقضي الامانة العلمية أن أذكر لقارئي ان زيارتي هذه كانت الى مصح عقلي يضم بصورة خاصة حالات من الجنون تدعى (بالشيزوفرانيا) ومشتقاتها . .

ومجنون (الشيزوفرانيا) ليس بالضرورة مصاباً بمرض فيزيولوجي في الدماغ أو الاعصاب . . على الاقل في مراحل المرض الاولى (انه كالمرشح للمرض بالقرحة ، يحس بعوارضها المؤلمة تشتد كلما اشتدت أزماته النفسية ، ولكن دون أن يكون لديه أي مرض عضوي في المعدة . . ومع الزمن ، تنقلب الأزمات النفسية الى مرض عضوي مزمن لا يشفى) . .

بعبارة اخرى ، مجنون (الشيزوفرانيا) ليس مجنونا بدليل مادي ، كعارض جسدي دماغي مثلا ، وإنما هو مجنون بدليل اختلاف سلوكه عن سلوكنا ! مجنون لأننا نعتقد أنه مجنون ! . . ولعل العودة الى الاصل اليوناني لكلمة (شيزوفرانيا = سكيزوفرانيا = (سكيزو + فرانيا) معناها : (مكسور النفس) أو (مكسور القلب) ما يعبر عن حقيقة حالته أكثر من كلمة (مجنون) العامة الشاملة التي اعتدنا إطلاقها باستخفاف على كل ما يخالف سلوكه الخارجي سلوكنا الاجتماعي المتعارف عليه . .

ولكن ، هل إطلاق لقب (مجنون) على انه تسمية (الاكثرية) ، للأقلية التي يختلف سلوكها عن سلوك الاكثرية ، هل يعني ذلك بالضرورة أن المجنون (مريض فاقد لقواه العقلية) لمجرد أنه ينتمي الى الاقلية المختلفة ؟

الاكثرية مثلا هي التي أمرت رجلا بقتل ملايين البشر بضغطة زر واحدة في هيروشيا (قائد الطائرة الذي أصيب بالجنون فيا بعد) ! . . ترى من كان على حق ؟ قرار الاكثرية غير الانساني ممثلا في قيادة دولته يومها ، أم محكمته الداخلية الذاتية التي دفعت به الى رفض مجتمعه ، ذلك المجتمع الذي دفع به الى الجريمة تحت لقب (الواجب) ، فكان رفضه لمجتمعه ما نسميه عادة (الجنون) ؟ ألا يمكن أن يكون جنون انفصام الشخصية هو احتجاج الاقلية المرهفة الحس والوجدان الانساني ، ضد الاكثرية التي غاب عنها صوت الذات الانسانية تحت أكداس الاصوات المتوارثة ، من قيم سائدة ، ومفاهيم مكرسة ، مرفوض سلفاً إعادة النظر بها ؟ . . صرخة احتجاج تتخذ احياناً صورة الهجرة عن الناس ، وعن عالمهم . .

ثم إن المرض العقلي ليس مرضاً جرثومياً نستطيع ان نرى جراثيمه تحت المجهر . . وهكذا فان من اختصاص الادب والفن وحامل القلم بحث أمر (المريض العقلي) ربما أكثر مما هو من اختصاص حامل المجهر . . أو لنقل : هو من اختصاص قلب يحمل مجهراً ! . .

ربما لذلك ، كان موقف الادب المبدع من المجنون يختلف عن موقف (العامة) الخاطىء . . مجنون شكسبير الشهير (هاملت) ليس مجنوناً ، وإنما شخصية مرهفة شاعرية مأساوية (فصامية) . .

الكاتب المسرحي المصري توفيق الحكيم يحدثنا عن رؤ ياه للجنون و(المجانين) عبر مجهر قلبه كما وصفها في احدى مسرحياته الرائعة التي تتحدث عن مملكة يجري فيها نهر . . كل من يشرب من هذا النهر يصاب بالجنون . . ويشرب من نهر الجنون أهل المملكة كلها (الاكثرية) ولا يبقى سوى الملك ووزيره لم يشربا ولم يجنا بعد ! . . فهل يشربان من النهر ليصبحا جزءاً من (المنطق السائد ، منطق الاكثرية) الذي يحتكر لنفسه صفة العقل ، أم لا يشربان ، ويقبلان تهمة الجنون وما ينجم عنها من فقدان للسلطة والمغريات الدنيوية ؟ . . ويشرب الملك ، أم يرفض أن يشرب ؟ ويفضل لقب « مجنون » لأن حبه (للحقيقة) كان أكبر من حبه (للأمر الواقع) الخاطىء ؟ .

ترى أي الموقفين على صواب ؟ . . بالضبط ، أيهما أكثر حكمة ؟ . . وهل يمكن ان

نسمي (التنازل عن الصدق) حكمة في بعض الأحيان ؟ وهل من حقنا أن نسمي هجرة الأقلية الصادقة عن الاكثرية الكاذبة جنوناً ؟ . . نحو هذا المفهوم تتجه الدراسات الحديثة في الطب النفسي .

وقبل أن استرسل في معلقة ، قد يجدها البعض من باب (البيان والتبيين في وصف محاسن المجانين) ، أعود بقارئي الى حيث كنا نتابع طريقنا الى المبنى الرئيسي .

المجنـون الوحيـد !

أمام باب مبنى المستشفى الرئيسي وقفت مجموعة من الشبان . . وكنت قد نسيت كل شيء عن « الخوف من المجانين » الذي تربينا خطأً عليه (حينما كنا صغاراً مثلا ، كانـوا يخوفوننا بالغول والمجنون . ونشأنا على مشهد رجل مشعث يمر بزقـاق فـيرميه الاطفـال بالحصى صارخين : مجنون . . ثم تركض سيارة الاسعاف ، لتلمه عن الطريق بأسرع مما تلم سيارات البلدية النفايات . ويتم حجبـه نهـائياً عن المجتمـع ، كما لو كان (نفـاية بشرية) تم استهلاكها ويستحسن حمـاية النـاس منهـا . . ويتـم سجنـه في المصـح الى الابد) .

أجل ! كنت قد نسيت كل شيء عن الخوف . لكنني فجأة شعرت بالهلع ، وكدت اختبىء خلف عاطف أو احسان ، اذ فوجئت برجل يسد باب المستشفى بجسده ، ويحول دون دخولي ، ويتحدث بسرعة وقد احمر وجهه وانتفخت اوداجه ، ويشـير الى الـزميل « زهير سعادة » وكاميراه بغضب شديد . . ولو لم ألحظ انه كان يرتدي الروب الابيض الخاص بالاطـباء والممرضين لانطلقت هاربة ، إذ ظننته المجنون الذي حدثني الطبيب عنه وحذرني من نوبات غضبه . . فقد كانت الصفات كلها تنطبق عليه : كان وسيماً ، ومتوسط القامة قوي العضلات ، وكان في حالة هياج شديد . .

ثم تبين لي أنه أحد (العقلاء) القلائل في هذا المكان ـ العقلاء رسمياً ـ وانه مدير المبنى والمسؤ ول عنه ، وانه غاضب لأن التصوير ممنوع ، ودخول الغربـاء الى المهجـع الرئيسي ممنوع !! . . .

واعتـذرت منـه ، وأفهمتـه انـني لن انشر الصـور إلا كما يقضي العـرف الطبـي والقانوني : أي بعد اخفاء ملامحهم .

وسألته عن أسمه . ولنسمه الأخ ممدوح . .

وهنا رحب بي بلطف وادخلني والوفد المرافق لي (وعلى رأسه احسـان) الى ردهـة المكان . . ومنها الى قاعة الطعام الرئيسية . .

وقررت أن أصارحه : أخ ممدوح . . أنت الوحيد الذي أخافني في هذا المكان ! أنت الوحيد الذي ظننته مجنوناً حقاً !! . .

وانفجرنا نضحك جميعاً . . . وعاد الحوار يدور مريحاً مرحاً ، مثقفاً تارة ، بسيطاً تارة اخرى ، عاطفياً كلما أصر ياسين على أن احقق وعدي له بالرحيل معه ، غريباً وغامضاً احياناً ، لكنه في أشد حالاته غموضاً لا يختلف عن الحوار الذي يدور بين أبطال مسرحيات بيكيت ويونسكو والمسرح الحديث (اللامعقول) .

الفقـر . . . والغربـــة

عبر الحوار لاحظت أمراً هاماً . اكثرهم إما فقير ، يعاني من طموح عجز عن تحقيقه أو وحيد في هذا العالـم الموحش ، لا أسرة تشـده الى التـراب ولا نظـام اجتماعياً عادلاً يقــوم مقامها . . .

والاحصاءات تدل على أن نسبة « المجانين » في البلدان التي حققت لافرادها ضماناً اجتماعياً عادلاً تنخفض انخفاضاً لا حد له بالنسبة لعدد المجانين في البلدان المتخلفـة أو الرأسمالية والمجتمعات الاستهلاكية . . .

في الولايات المتحدة ، هنـالك ٥ من كل عشرين شخصـاً يتـرددون على العيادات النفسية ، أو يمرون بمستشفى الامراض العقلية مرة أو أكثر في حياتهم ! . .

الوطـــــن

شاب يرتدي بزة عسكرية . ليس فيه ما ينبىء عن أي جنون ! . .

سألته عن اسمه قال : عكا .

وطنه : فلسطين . . . . قال لي إحســان ان صوتـه جميل . . سألتـه ان يغنـي لي ، فانطلق ينشد كلمات دمعـت لهـا أعـين بقية المرضى (فعـلاً) . . . كان قد حور الموال السوري الفلسطيني (يا ويل اللي ما يخاف ربه ، يتبغدد على اللي بيحبه) فصار :

« يا ويله اللي يضيِّع وطنه
ومـا يجـازي اللـي غـدره
صار لاجىء لا أرض ولا مـــال
ولا دار وخيمه يعــد نجـــوم
في السما ، يشتهي النـــوم
يقضـي نهـــاره مهمـــوم
حامل الكارات واقف ينتظر اللقمة » .

وسألت عنه ، فعرفت انه قد شهد في طفولته مذابح دير ياسين ونجا منها بأعجوبة !! . . (ترى من المجنون ؟ هو الذي لا يستطيع أن ينسى ، أم هم الذين مؤهلات مهنتهم أن ينسوا !) . .

الجنون . . والوطن

سقط الليل وبدأت الاشياء تصبح أكثر حزناً ومرارة . . . بدأت الكلمات تصبح أكثر كثافة . . . ونبهني الزميل زهير سعادة الى أن (الجماعة تعبوا) ! فقررت أن أذهب . . .

وأنا أغادر المكان لحق بي شاب وخلع كنزته وطلب مني أن أهديها الى فدائي ! . . اختلطت الاشياء . . لم أعرف هل هو ممرض أو مجنون . . هل هو (منهم) أم (منا) . . . من يعايشهم يتأكد من أن الخيط الفاصل بين العقل والجنون أوهى من خيط الافق ! . .

وقبل أن أمضي شاكرة لعاطف وممدوح مساعدتهما ، لم أنس أن استفسر عن الشاب المثقف (العنيف احياناً) الذي حذرني الطبيب منه . . . ولماذا لم أقابله . .

وكدت اشهق حينما قال لي عاطف : انه إحسان ! مرافقك الخاص الذي اخترته !! . . . هو أعنف شاب في المكان .

وعرفت فيما بعد مأساة احسان المصاب بانفصام الشخصية : انه لبناني ، اراضيه في الارض المحتلة ، يتسلل الى هناك ، لحراستها في غارات ليلية فردية ، ينسى عنها كل شيء فيما بعد . . . انه رجلان : المثقف اليائس ، الانتحاري الشخصية . . . والعربي الغريب الممزق بلا أرض ولا هوية !! . .

الجريمة الحقيقية

وأنا أغادر المكان ، كانت صرخات ياسين تنطلق من احدى النوافذ كصرخات مجنون فولكنر ، وتمتزج بالليل الذي ربض بجسده الاسود الغامض فوق كل شيء . .

كان ياسين يبكي لانني وعدته بالرحيل معه ولم أفعل ! . . عذبني ذلك . (غداً لن يحب سوى الاشجار . سيكره هدى وسيكرهني لأننا عقلاء نحترف الكذب !) . .

مهجع « الكاف دي روا »

عدت الى بيروت . في احدى (عصفوريات) الروشة ، بالضبط في « الدولشي فيتا » ، حدثني الشاب عثمان الطبش (١٨ سنة ـ فلسفة) عن التجربة النادرة التي قام بها ورفاقه .

لقد قضوا ٢٢ يوماً في حقول المستشفى . وعملوا مع المجانين في الحقول . . .

قال لي : بعد أيام لم نعد نميز المرض عن الزائر عن المجنون عن رفاقنا . . . في الليل كنا نسهر معهم في المهاجع . . في أشد حالاتهم جنوناً وغناء ورقصاً كان المكان يصبح شبيهاً بـ « الكاف دي روا » ملهى نجوم المجتمع المخملي ببيروت !! . . هذا كل ما في الامر !! . .

التهـاب (الزائدة)
والتهـاب العقـل

وبعد ، يبدو ان الانسان في عصر الفضاء ما يزال يعرف عن مغاور النفس البشرية أقل مما يعرفه عن مغاور القمر . . .

ويبدو أن إعادة النظر في مفهومنـا (للمجانـين) ، وأسلوبنـا الـوحشي في تعاملنـا معهم ، بحاجة الى نسف أساسي . . .

المريض بالتهاب الزائدة الدودية يعلن عن ذلك ، فيهرع الناس اليه يعودونه بحنان ويهنئونه بالشفاء . . .

المريض بالتهاب في العقل (وكل ما في عالمنا يدفع بأي عاقل الى الإصابة بالتهاب في العقل) نسميه « مجنوناً » ونحرمه فوراً من حقوقه المدنية ، كما نحرم أي سجين . . بل وأقسى . .

قد يجد (السجين سابقاً) ، من يثق به ، يحبه ، يتزوج منه ، يوظفه ، أما المجنون سابقاً ، فإن ألصق الناس به من أفراد اسرته يدفعون به الى الجنون من جديد ـ دون قصد ـ لكثرة ما يرقبون سلوكه وتصرفاته وردود فعله . . .

وربما كان الجيل الجديد ، من أمثال عثمان الطبش ورفاقه ، أكثر قدرة على فهم مأساة (إحسـان) ورفاقـه . . . أليس في مخيمهـم هذا إشـارة الى أن رؤ يا الجيل الطالـع « للمجانين » أكثر وضوحاً وانسانية من رؤ يا الاجيال الماضية . . .

ولأن عثمان سألني عن (احسان) بالذات أحسست ببعض الطمأنينة ، وبأن يوماً سيأتي وتصير فيه كلمات مثل (الجنون . الموت . القسوة) مجرد ذكريات لكوابيس عابرة مرت على سحنة الوجود الانساني ولطخته طيلة أجيال . . .

٢٦/٥/١٩٧٢

البيان والتبيين في وصف محاسن المجانين !

حينما تصير أيامنا تلاً من الزجاج المكسر ، علينا أن نزحف فوقه بصدورنا العارية ، ويصير أحباؤ نا طيوراً محنطة تتدلى من رقابنا ذكرى من الرعب ، ويصبح أصدقاؤ نا فزاعي طيور في حقول الذاكرة . . حينما يستحيل وجودنا كله الى شريان مقطوع معلق في دنيا الآخرين اللامبالي ، شريان ينبض بشراسة مستسلمة ، ولا يدري حتام يطول نزفه ، حينئذ يلخص علم النفس القديم والحديث ذلك كله بقوله : أنت عصابي . . .

واذا كان علم النفس القديم يصف لذلك كله علاجاً أبرز ما فيه البعد عن الناس ، وهجر العمل ، والتخلي عن مسؤ وليات الحياة اليومية ، فان علم النفس الحديث يصرخ بالعصابيين : كن فخوراً بكونك (عصابياً) فليس في التاريخ عبقري واحد لم يكن عصابياً ، المهم هو أن تتعلم كيف (توظف) هذا المرض ، وكيف تحوله من طاقة هدامة الى طاقة مبدعة .

وربما كانت ابرز هذه الصيحات وأهمها هي التي تضمنها كتاب « كن سعيداً لأنك عصابي » من تأليف أحد كبار علماء النفس المعاصرين البروفسور لويس بيش . . .

ليست مفاجأة لأي قارىء أن يعرف أن كتاب « كن سعيداً لأنك عصابي* » قد طبع ٢٧ طبعة ، وانه مترجم الى السويدية والاسبانية والفرنسية ، فالعصابية هي مرض العصر ، وكل ما في عصرنا من حروب عالمية وهزات فكرية واضطرابات في المعتقدات والمرتكزات التقليدية ، وفقدان الايمان واليقين ، والتطور العلمي السريع والفقر وقسوة المجتمعات الاستهلاكية والطبقية البشعة والافتقار الى العدالة والحرية الحقيقية ، وعصر الآلة والتكنولوجيا ، وربما قريباً عصر السياحة في الفضاء ، هذه العوامل كلها زادت في اضطراب نفس الانسان وحيرته في متاهات الوجود . . .

هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فإن الكتاب بحد ذاته يعتبر دراسة أكاديمية قيمة ،

---

* كتاب « كن سعيداً لأنك عصابي » BE GLAD You're NEUROTIC
تأليف الدكتور لويس بيش Dr. LOUIS E. BISCH

عميقة وبسيطة اللغة في آن واحد ، تتضمن فهماً لا حد له لأحاسيس الإنسان العصابي . . ولا غلو في ذلك ، فان مؤلف الكتاب البروفسور العلاّمة ، مريض بالمرض الذي يتحدث عنه : العصابية . انه عصابي كبير ، استطاع أن يحول عذابه ، الى طاقة عملية منتجة ، وهو يروي لنا في هذا الكتاب تجربته الخاصة مع هذا المرض الذي لا شفاء منه ، بل والذي يجب أن يفخر المصاب به ، ويحرص عليه ويحذر من محاولة الشفاء منه ! . . وانما عليه تصعيده ، وتحويله الى طاقة تدمر قوى اللاعدالة واللاجمال في الوجود بدلاً من طاقة تدمر صاحبه . . .

والقارىء الذي تستهويه قراءة كتب علم النفس ، لا بد أن يلحظ أمراً طريفاً ورائع المدلول ، وهو أن أجمل وأعمق وأصدق ما كتب حول أمراض النفس ، هي كتب خطها أطباء ، هم في الوقت نفسه مرضى نفسانياً ، ومرضى بالمرض الذي يتحدثون عنه ! . .

فالمؤلف ، بصفته مريضاً سابقاً ، يرصد المرض ويعيه ويصف أعراضه . ويحس المريض بذلك أنه أمام شريك لأوجاعه ، لا متفرج حيادي يمدده على أريكة الطبيب النفساني التقليدية ، ويرقبه متثائباً وهو يرعف أيامه وينزف أحزانه ، ثم يدفع إليه بفاتورة ثمن انصاته ! . . . هذه الموجة في علم النفس ، موجة الاطباء المرضى ، ستكون لها الغلبه كما يبدو ، وقد يأتي يوم لا يسمح فيه بالانتساب الى كليات الطب النفساني إلا لخريجي مستشفيات المجانين مثلا !! . . أو لمن يثبت أنه ليس إنساناً (عادياً) وإنما هو من حزب أصحاب (الخافق المعذب) ، المعذب لا لفشله في حب امرأة ، وانما لفشله في حب العالم المجنون الذي يحيط به ، والتوافق معه . .

من هو العصابي ؟

العصابية مرض تتفاوت أعراضه في الحدة ولكنه بصورة عامة هو اضطراب عاطفي وعصبي . ويقول الدكتور « بيش » ان العصابيين أناس يشعرون بصورة عامة بأن الدنيا دهليز ضيق آخره مسدود . . وهم لذلك يمضون في الحياة بخطى مثقلة ، وقلوب قد انطفأ الغد فيها . . انهم لا يقبلون على عملهم بشهية . . ويتعثرون في دروب الحياة بصور مختلفة ، منها عدم الثقة بالنفس ، والخجل ، وتأنيب الضمير والشعور بالذنب ، والعجز عن اتخاذ القرارات وزيادة الحساسية وتضخيم الامور ، ومحاسبة الذات والدفاع عن النفس دون أن تكون متهمة . . والنوم المضطرب . . والاحلام المزعجة . . هذه الأعراض كلها تهدر طاقات الانسان وتشتته ، وتسلمه فريسة للإرهاق ، وتخرب حسه الفطري بحب الحياة . . .

وليس من الضروري أن تجتمع هذه الأعراض كلها لدى العصابي ، ولكنها توجد لديه ، بنسبة ما يسيطر عليه المرض . . . أما الحالات العصابية الحادة التي قد تؤدي بأصحابها الى المصحات ، فالبروفسور « بيش » لا يعنيها في كتابه هذا لأنها كما يقول تشكل أقل من نسبة واحد بالألف لدى العصابيين (في الحالات الحادة تصير العصابية هستيريا تسببها الأماكن المغلقة مثلاً أو هستيريا وسواس المرض أو هستيريا المرتفعات وكلها أيضاً متشابهة وقابلة للشفاء) . . . إن ما يعنيه بالعصابية التي يجب ان تكون سعيداً بها ، هي تلك الحالات التي لم تفقد فيها بعد سيطرتك على نفسك نهائياً . . . كما لم تفقد بعد رفضك للتكيف مع العالم حولك .

العصابي ليس مجنوناً

والدكتور « بيش » يفرد في كتابه هذا فصلاً لمزيد من الايضاح بما يعنيه بالعصابي ، ويميز بين العصابي والمجنون قائلا : ان كلمة NEUROTIC « العصابي » ليست كما يظن البعض الكلمة المهذبة المرادفة لكلمة « مجنون » . . . فالفرق بينهما شاسع ، وإن كانت كل من أعراض العصابية والجنون مشابهة جداً لأعراض العبقرية ! . . . فالعبقري ، والعصابي ، والمجنون ، كل منهم يرفض العالم بصورته القائمة حوله ، ولديه رؤيا أخرى له ، وكل منهم يرفض النموذج الاجتماعي السلوكي الموحد ، ويتوقف أمامه ليقول : لا . أو ليصرخ لماذا ، أو على الاقل ليهمس : ولكن . . .

إذن في حالة العبقرية ، والعصابية ، والجنون هنالك رفض للعالم الخارجي . ولكن العبقري يبدل العالم ويحاول أن يقربه من الصورة التي يريده عليها . . . إنه عبر عبقريته يؤثر في مجرى التاريخ والاجيال .

أما المجنون فيخلق لنفسه عالماً خاصاً به ، ويرى الاشياء كما يريد أن يراها دون أن يبدلها حقاً ، وهكذا فالجنون هو نوع من الهجر النهائي لعالم الاكثرية (الملقبين بالعقلاء) وهو بالتالي ذروة في الاكتفاء الذاتي وليس بالضرورة وضعاً تعساً . . وبعض المجانين هم في غاية السعادة ، لأنهم يرون الأشياء تماماً كما يريدون أن يروها ، مهملين بذلك كل الاهمال ، وجهة نظر العالم الخارجي ، وهم مقتنعون بأنهم على حق ، وبأن العالم كله على خطأ (أي كالعباقرة) .

أما العصابي ، فإنه لا يهجر العالم ، أو يقطع خيوطه كما يفعل المجنون ، وانما هو كالعبقري يعي وجود خلل في العلاقة بينه وبين الاشياء حوله . . . والمهم أن يقدر على

تحليل ذاته وتحليل عالمه ، ليعي الفرق بين رؤيته الخاصة الأصيلة للوجود ، والرؤية السائدة ، وليحاول إبداء وجهة نظره وتجسيدها في موقف . . . والخطأ الذي يرتكبه العصابي ، هو محاولة الاستسلام للاشياء كما هي ، حيث يصبح طموحه هو أن يصير إنساناً (عادياً) . . . فالعباقرة هم عصابيون جسّدوا مشاعرهم ومواقفهم في لوحة أو كتاب أو قصيدة شعر . . . وأشهر عصابيي التاريخ هم مثلا : نابليون ـ الاسكندر المكدوني ـ يوليوس قيصر ـ مايكل انجلو ـ ادغار آلن بو ـ باسكال ـ موليير ـ والت ويتمان ـ فيلدينغ وجولد سميث . . ويقول الدكتور بيش ان دراسة الحياة الشخصية لعظمائنا المعاصرين ، تثبت أنه ليس بينهم من ليس عصابياً ، وأن معاصري عظماء التاريخ كانوا يعتبرونهم خلال حياتهم غريبي الاطوار وشاذين ، وأكثرهم مات في المصحات العقلية أو منتحراً أو مسجوناً بعد محاكمة لجرم شائن (مثل اوسكار وايلد مثلا) . . ويؤكد المؤلف بإلحاح على أن العصابية علامة من علامات التفوق ، ويستشهد بقول البروفسور جانك : جميع العصابيين يمتلكون بذور العبقرية والمهم ان يحسنوا زرعها واستنباتها . . .

ويشكو المؤلف أيضاً من سوء فهم المجتمع لكلمة « عصابي » . فزوجة المؤلف مثلا حذرته وهو يؤلف كتابه من أن يعترف بأنه مريض عصابي ، كي لا يخسر سمعته الطبية وزبائنه ! وهو يعتقد أن تحذير زوجته ، يعبر عن وجهة نظر المجتمع ومفهومه الخاطىء للإنسان العصابي واعتبار هذا المرض امراً مشيناً . . . بل انه يشكو أيضاً من الاطباء النفسانيين الذين يسيئون فهم هذا المرض . . . ويروي أن زميلاً له حول إليه مريضة عصابية قائلا له : إنها ليست مريضة حقاً وكل ما تشكو منه هو (أوهامها) . . . ويقول الدكتور بيش : أوهامها ؟ ! ألا يكفي ذلك ؟ ! . . ثم ما الفرق الواضح والنهائي والأكيد بين الوهم والحقيقة ، ما دام صاحب القضية يحس بهما بصورة متساوية ؟ . . عبر الوهم وبالخيال ، نحن مدينون بكل ما حولنا من اختراعات وقصائد وأشعار ومسرحيات . أين تكون الحضارة لولا الخيال ؟ ألا يدين الانسان برقيه كله للخيال الجامح المجنون ؟ . . ولكن الفرق بين العبقري والعصابي هو أن العبقري استطاع أن يعبر عما يستعر بداخله وأن يوصله الى الناس في إنتاج فني ، فنال أوسمتهم واستحسانهم ، أما العصابي فانه يأكل نفسه بصمت وأسى مشيعاً بازدراء الناس ، والعلاج المطلوب له هو إعادة حنجرته إليه ليعبر عن ذاته وليس استئصال جهازه العصبي الحساس أو تخريبه أو تعطيله عن العمل . . .

ولكن الدكتور بيش لا ينسى أن يذكّر مرضاه ، بأنه ليس كل عصابي عبقرياً

بالضرورة ، وان إصلاح الأمر لا يكون بالانتقال إلى عقدة العظمة وانما بنوع من المصالحة مع الذات ومعرفتها واكتشافها وبالتالي تحويل طاقاتها الى البناء في الخارج بدلاً من الهدم في الداخل . . . أما الطريق الى ذلك فتتلخص في المبادىء الخمسة التالية :

١ ـ حلل نفسك ـ أي « اعرف نفسك » وهو الشعار العتيق الخالد الذي رفعه سقراط .

٢ ـ كف عن الاحساس بالذنب .

٣ ـ إكتشف طموحك الحقيقي .

٤ ـ وظف نقاط ضعفك واجعل منها مزايا .

٥ ـ أحسن الاستفادة من سلاح عصابيتك . وهو يصف في كتابه كل خطوة من هذه الخطوات بالتفصيل ، ويرى أنه أثناء المواجهة الذاتية ، والمعالجة النفسية ، تتكشف طاقات دفينة في النفس . . وانه من الضروري لتطبيق هذه المبادىء الخمس ، أن يجد الانسان حوله شيئاً من التفهم لوضعه . . . التفهم لنفسه أولاً . وعدم فهمها خطأً على انها حالة جنون ، ثم التفهم على صعيد الاسرة ، فالأهل ما زالوا يجدون في « العصابي » ما يضايقهم ، أكثر مما يضايقهم مريض بالجدري ! . . . والتفهم على صعيد الاصدقاء ضروري ، فالعصابي ـ غالباً ـ يجد نفسه وحيداً ، وقد نأى عنه صحبه . . . والتفهم حتى من قبل الاطباء الذين يعالجونه ضروري أيضاً ، وذلك كله لا يتم الا بحملة إعلامية توضح حقيقة العصابي ومدلوله . . . وأن تكون إنساناً عادياً ليس أمراً يدعو الى المباهاة ، وأن تكون عصابياً ليس بالضرورة انك انشتاين أو برنارد شو ، ولكن من الممكن على الاقل ، أن تكف عن أن تكون تعيساً ! . .

ويفرد الدكتور بيش فصلاً كاملاً في كتابه ، يسخر فيه من الفرد (الطبيعي) العادي قائلا : ان تكون انساناً عادياً ليس موضع فخر . ليس في الانسان العادي أية أصالة أو خصوصية ، ولا لمعة ولا شرارة ولا ضياء . تذكر أيها الانسان العادي انك لن تنجح أو تصير مرموقاً لأنك تتصرف كالآخرين ، وأن النجاح هو أن لا تكون كالآخرين . . . حسناً . افعل كل ما هو من المفروض أن تقوم به . كن ابناً نموذجياً . انجح في مدرستك بدرجة أولى . تزوج لترضي جدتك . اتبع أوامر ساعة الحائط دونما كلل . امتلك بيتاً . وفر نقودك ليوم الضيق . كل وجباتك الصحية في أوقاتها وابتلع اقراص فيتاميناتك . انضم الى نادي « اللايونز » أو « الروتاري » . أمّن على حياتك ، وتستطيع بعد ذلك كله أن تكون واثقاً من أن جميع أفراد عائلتك سيحضرون مأتمك ! . . . ولكن أحداً آخر لن

يذكرك ، ـ غير الندابين المأجورين ـ لأنه بعد أن يتم رميك في حفرة قبرك أنت ومزاياك (الحميدة) ستمضي دون أن تكون قد قدمت للانسانية ما يذكر) !! . . . .

ويتابع الدكتور بيش تفضيله للعصابيين ـ على اخطائهم ـ على العاديين وفضائلهم الصغيرة ، فيقول إن العصابي حينما ينجح ، يعرف سعادة أعمق من سعادة الإنسان العادي الناجح . . . فالعصابي الذي يبلغ أحياناً قاع بحار الاسى ، هو القادر على أن يطال ذرى السعادة وغمامها . . إنه قد يتعثر ويسقط ، ولكنه دوماً يتنفس بملء صدره ويعب حلو الحياة ومرها ، ودمه المليء بالحيوية يركض مجنوناً في أعماقه ويغلي في حواسه المرهفة . . . وانه لو لم يكن هو عصابياً (أي الدكتور بيش) لما كتب هذا الكتاب ، ولما حوّل طاقات عذابه الى طاقة ناجحة هي كتابه هذا ، وهو يدعو رفاقه المرضى إلى الاقتداء به . . المهم أن يعي العصابي أن في العالم ملايين العصابيين . . وان هنالك سبباً لمرضه وهو أن العالم حوله مريض باللاإنسانية ، ومرضه هو احتجاج على عالم مريض وهو بالتالي في جوهره دليل عافية . . . وأن الذي لا يمرض في عصرنا هو المصاب ببلادة الاحساس والغباء . . . وان أعراض (العصابي) هي نوع من صرخة الاحتجاج وصرخة الاستنجاد في آن واحد . . . وان المهم أن يقاوم المريض ولا يستسلم . . . وأن يعرف الى أي حد هو مريض ! . . .

من اجل هذا الغرض ، زودنا الدكتور بيش في كتابه بنموذج من الاسئلة هي عبارة عن مئة سؤ ال ترد عليها بنعم أو لا ، ثم تحصي عدد إجابات نعم ، فاذا فرضنا أنك اجبت على ٧٠ سؤ ال منها بنعم فأنت عصابي ٧٠ بالمئة وان اجبت على ٨٥ بنعم فأنت عصابي ٨٥ بالمئة وهكذا . . . وهنا احب ان أسجل عدم اعجابي بهذه الطريقة (الاميركية) في التحليل النفسي ، والكتاب ـ رائع لولا هذا الجزء الذي ربما يهدف مؤلفه الى تبسيط الامور لمريضه ولكنه هذه المرة تبسيط مبالغ به في نظري . . . الاسئلة المفروض أن تطرحها على نفسك هي من نوع : هل تخشى مقابلة الناس ؟ ، وهل تحس بالذنب ؟ ، وهل تحس بالاضطهاد في عملك ، وهل تكره الاطفال ، وهل تجزع من الزواج وهل تميل الى اظهار عيوب الناس وهل فقدت الطموح وهل تحس بأن حياتك بلا جدوى ؟ . . . الخ . . . وأنك لا تستطيع أبداً أن ترد على أي سؤ ال بجواب نعم أو لا ، على الطريقة الاميركية الكريهة !

صرخة احتجاج عادلة

أياً كان رأينا في الكتاب ، فانه دونما شك صرخة احتجاج على جهل الناس بحقيقة

أمراض أعماق النفس البشرية ومدلولها . . إنه محاولة للتنبيه بأن العلم المعاصر ، الـذي يعرف كل شيء تقريباً عن عمل أعضاء الجسد ـ كجهاز الهضم والتنفس ـ ما زال يتخبط في ظلمات علم ما يزال في المهد ، هو علم اكتشاف أسرار التحولات النفسية للانسان . . وصحيح أن العلم استطاع بغواصاته ان يسبر غور أعماق البحار ، لكنه ما يزال عاجزاً عن سبر غور الانسان والغوص في أعماقه ومساعدته على الشفاء من جروحه ، وندوبه . . .

وفي مؤتمر طبي عالمي حول الانتحار ، تبين مؤخراً أن أكثر المنتحرين من أصحاب المهنة الواحدة هم الاطباء النفسانيون . . . لماذا ؟ . . . تراهم صعقوا لما ازدادوا اقتراباً من حقيقة النفس البشرية ، وهل هالهم ما فيها من حقارة أم من سمو أم من نزف وجروح على مر التاريخ ؟ ام هالهم انها مزيج من ذلك كله . . وانهم من بعضها . . . وانهم رأوا وجوههم الحقيقية في مرآة مرضاهم ولو لثانية كومضة برق صاعقة قتلتهم ؟ . . .

١٩٧٤/٧/٨

انزعوا القيود عن المجانين

صعد الطبيب العقلي درجات سلم المصحة . كانت أصوات المرضى المسجونين تغطي العالم احتجاجاً ونحيباً ، وأحس انه يمضي الى جحيم دانتي . . . او أن دفتي كتاب من كتب الرعب قد فتحتا ، وها هو يخطو الى داخل الكتاب لتبتلعه أحداثها المخيفة الغامضة .

ولم تكن الصرخات وحدها هي التي تعذبه ، فلقد لفتت انتباهه سلسلة من اللوحات المعلقة على الجدار الملاصق للسلم ، وحينما وصل الدرجة الثالثة اتضح له أن اللوحات تصور أعراض الجنون ووسائل معالجته على مر العصور . . . وجوه معذبة لبشر يعاملون بالسخرية والهزء ، ثم بالضرب والجلد وحمامات الماء البارد ، والاذلال والقهر ، وأخيراً ينتهي الأمر بالمريض حليق الشعر مقيداً من رقبته بسلسلة الى الجدار . . . وخيل للطبيب انه يرى نفسه موضع المريض في سلسلة اللوحات .

هذا ما كتبه الروائي ويليام جونستون في مطلع روايته Asylum والرواية هي حكاية تجربة طبيب في « مستشفى للمجانين » . . . . ولكنني لن احدثكم اليوم عن هذه الرواية ! . . سأحدثكم عن رواية أخرى مماثلة لتجربة طبيب في مستشفى المجانين ، والفرق هنا ان كاتب الرواية هو بطلها . . . انه الطبيب والبطل في آن واحد ، والصدق هنا أكثر حدة وعمقاً ، خصوصاً أن كاتبها الطبيب لا يفتقر الى الموهبة الأدبية . . .

لكنني اخترت لكم هذه السطور من رواية « مستشفى المجانين » شاهداً على فظاعة الأساليب المتبعة على مر العصور لمحاولة شفاء « الجنون » وهذا ليس سراً طبياً ، وها هم كتّاب القصة يستوحون من هذه الأساليب روايات رعب ومن أجواء مستشفيات المجانين سراديب تدور فيها مشاهد العنف التي يقشعر لها القلب والقلم . . .

الكتاب الذي سأحدثكم عنه هو النقيض تماماً . ومستشفى المجانين هنا ليس سرداباً للتعذيب بل مسرحاً لتجربة جديدة تماماً في عالم الطب العقلي . . .

القفص المطلي بالذهب

اسم الكتاب : The Guilded Cage * وترجمته الحرفية « القفص المطلي بالذهب » ، مؤلفه هو الطبيب المجري البروفسور استيفان بنديك ، ويروي فيه مذكراته لتجربة نادرة عاشها في أحد المصحات العقلية ، وهو مكتوب باسلوب قصصي شيق . . . فيه ومضات علمية مهنية ، لكنه بصورة عامة أعد ليقرأه عشاق القصة ، والمغرمون بالدخول الى دهاليز النفس البشرية وأسرارها ، والمولعون بمتابعة الاكتشافات الجديدة في عالم الانسان وأعماقه الغامضة .

الشيء الأساسي في الكتاب هو رفضه لكل وسائل معالجة المجنون بالعنف . . . انه يريد معالجة المجنون بالحب . . معالجة المجنون بلمسة الحنان قبل الصدمة الكهربائية . . . ومعالجته أولاً بالعمل ، العمل المثمر والمجدي بين أحضان الطبيعة . . .

وهكذا فالكتاب ، بالاضافة الى ميزاته القصصية الكبيرة ، يطلعنا ايضاً على ثورة في عالم الطب ، هي الدعوة الى تحرير المجانين من المجانين الحقيقيين (أي نحن !) . . .

يبدأ الكتاب بما يشبه فاتحة لرواية بوليسية . طبيب وزوجته ذاهبان الى مستشفى للمجانين تتعطل سيارتهما وينامان وأمتعتهما تحت المطر ، يصلان الى المستشفى مرهقين ، ويفاجأ الطبيب بأنه ليس فقط رئيس المستشفى بل طبيبها الثاني الوحيد ! . . ويحيط بهما المجانين من كل صوب في مكان تكتنفه الاسوار والصرخات ويجرجر فيه المرضى قيودهم كالسجناء . . .

وتتحدث الفصول التالية عن « مغامرة » الطبيب وزوجته . لقد اضطر الى الإقامة داخل المستشفى في غرف ملاصقة لغرف المرضى ، وكان ذلك عاملاً أساسياً للدخول الى عالمهم بحنان . . . وخلال الأعوام الثلاثة التي قضاها الطبيب معهم بدأت تتكشف لعينيه أمور كثيرة لم تكن موجودة في كتب الطب التي درسها . . . وها هو يرويها لنا .

يقول الطبيب في مقدمته للكتاب : « يعتقد من لا يعرفون المختل عقلياً اعتقاداً جازماً بأن الشخص المجنون ليس بإنسان . والهدف الرئيسي من هذا الكتاب هو الكشف عن مدى إنسانية المجنون ، وبالتالي عن مدى حاجته الى معالجة إنسانية . لقد كان المجتمع

---

* كتاب « القفص المطلي بالذهب » THE GUILDED CAGE
تأليف الدكتور إستفان بنديك ISTVAN BENEDEK
ترجمه الى العربية الدكتور قدري حنفي والاستاذ لطفي فطيم وراجعه وقدم له الدكتور أحمد عكاشة . صدر بالعربية في حزيران ١٩٧٥ بعنوان « الانسان . . . والجنون » عن دار الطليعة .

بالغ القسوة بالنسبة إليهم لعدة آلاف من السنين ، وإني أعتبر مهمتي هي أن أوضح للناس ، انه ليس من حقهم نبذ الشخص المختل عقلياً ، فاختلال العقل كارثة يمكن أن تحل بأي منا . . . »

وهكذا فالكتاب في مجمله دعوة الى تحرير المجانين من نظرة المجتمع الخاطئة ووسائل العلاج السائدة . « فقد كان مصير المجانين على مر العصور التعذيب والضرب والسجن حتى انهم يقاسون أكثر من ضحايا الرقيق الأبيض ، ويلقون إساءات أكثر من التي يلقاها الملونون والعبيد » . .

وينطلق الطبيب في علاجه من إيمانه بأن لدى المجانين المقدرة على تبادل العاطفة والعطاء .

وهكذا ففي مصح « الجرانج » تمت تجربة فريدة في عالم الطب يرويها لنا بطلها الطبيب بأسلوب فريد في عالم القصة .

انزعوا القيود

الخطوة الأولى ، نزع القيود وتكسير الأسوار ، وفتح الحديقة أمام المرضى للعمل . . .

وهكذا نشأت أول مزرعة جماعية من نوعها في التاريخ ، وتحول المستشفى البائس الفقير ، الى مكان للعمل والانتاج . وقد نجحت التجربة ، لدرجة أن أكثر المجانين عنفاً جسدياً مال الى الهدوء والدعة بعد فك قيوده . فما يزيد في سوء حالة المجانين ، ويضاعف ميلهم الى العنف ، هو العنف في معاملتهم وسجنهم وتعذيبهم . . . وهكذا يعمل الجميع في حديقة المستشفى تحت المراقبة طبعاً حذراً من حدوث مفاجآت عنف . وقد تحسن الجميع ، ووقفت الاحصائيات في صف البروفسور وشفي الكثيرون وعادوا الى بيوتهم ، كما عاد بعض الذين شفوا للعيش في مزرعة المستشفى ، لأنهم لا يحتملون « جنون » العالم الخارجي وقسوته ! . .

نماذج انسانية

في الكتاب نماذج إنسانية رائعة ، يحكي لنا الدكتور استيفان بنديك قصتها ، وأعراض جنونها ، ثم الأساليب التي اتبعها في علاجها ، وكلها يرتكز على التفهم والحب والحنان ثم الدواء . وأكثر ما أدركه الطبيب غرابة هو خطأ النظرة القائلة : « هذا مجنون . . . أخاف منه . . . سيهاجمني ! » فليس هنالك مبرر للخوف من « مختلي

العقل » ، ولكن فليحمنا الله من « الاسوياء » ! . . كما ليس هنالك « مختل عقلياً » يمكن أن يهاجم دون سبب على الاطلاق ، في حين ان « العقلاء » يفعلون ذلك باستمرار لأسباب مجنونة تافهة . . .

وهكذا حول الطبيب المستشفى الى مستعمرة تضم حوالي ٣٠٠ مريض ، لا يستغلهم الناس « الاسوياء » ، وتتم معالجتهم بالعمل ، والعلاج الايجابي يتم بشرط ان يقوم المريض بعمل منتج يحبه حقاً . . . وهنا يأتي دور الشعراء في مملكة المجانين هذه ، إذ ماذا يفعل الشعراء ؟

مجانين المجانين

الشعراء هم « مجانين المجانين » . هم أصعب الناس علاجاً . أكثرهم يكره الأعمال اليدوية ويفضل كتابة الشعر . . .

والبروفسور لم يعترض على ذلك بل شجعه . كان يعيرهم الكتب من مكتبة المستشفى ، ويناقشهم ، ويقرأ أشعارهم ويجمعها . . . وفي كتابه مجموعة جميلة منها !

وكان من شعراء مستشفى او مزرعة « الجرانج » الشاعر « امير الحزن » او « ذو الدموع الماسية » ، كما يحلو له أن يلقب نفسه ، والشاعرة هيلغا التي اسمى البروفسور كتابه انطلاقاً من الوصف الذي اطلقته هي بنفسها على المصح : « القفص المطلي بالذهب » . . .

فالجنون في حد ذاته قفص يسجن الانسان نفسه بنفسه فيه ، منعزلاً عن العالم ومقاييسه وقيمه ، وهنالك المصح الذي هو أيضاً قفص آخر ، وكل ما يملكه الطبيب هو تحسين ظروف عيش البؤساء المرضى داخل القفص ، وبعبارة أخرى طلاؤه من الداخل بالذهب ، أما كسر القفص نهائياً فتلك قضية اخرى . . . (لعل قفص العالم الخارجي « السوي » هو الذي في حاجة الى كسر بكل ظلمه وتفاهاته) . وكان هدف البروفسور إعادة « الاستمتاع بالحياة » الى سكان مملكته.، ولكنه اكتشف ان مأساتهم الأساسية هي في موت الجمال داخلهم . . ووعيهم بكل ما هو مؤلم في الحياة . .

وهكذا تحول المستشفى الى مملكة صغيرة من نوع خاص ، الى موناكو للذين قامروا بأنفسهم وخسروا العالم ، الى عالم سحري حزين فيه نماذج كثيرة معذبة .

هنالك المؤلف الموسيقي « بيتر مارتير » الذي كان يكتب موسيقاه المسعورة . . . وهنالك الأديب الذي كتب رواية ، وظل سنوات وهو يبدل فيها غير راض عنها ، وذات صباح نهض باكياً لأن مخطوطه اختفى . وبحثوا عنه في كل مكان دون جدوى ثم عرفوا انه

هو الذي اتلفه دون أن يدري ، أو بعبارة آخرى شخصيته الثانية (أليس بين الكتاب من فعل ذلك برواية له خارج المصح ؟) وهنالك أديب آخر في المصح تفوح منه رائحة الثوم باستمرار حتى ليعجز أحد عن الاقتراب منه ، ثم اكتشفوا انه يشرب الخمرة خلسة ويدعك نفسه بالثوم ، لا ليبعد عنه الشياطين بل الشبهات والمراقبين من الممرضين ! . .

وفي هذه المملكة العجيبة بدأت كل الفعاليات تنشط ، وأبرزها الفعاليات الأدبية . وقد لاحظ البروفسور بنديك ان الفلاحين والعمال هم الذين كانوا أسهل مراساً وأوثق علاقة بالتراب من المثقفين ، كما أنهم كانوا يتمتعون بحب الأغلبية . اما « شعراء مستشفى المجانين » فكانوا بلا شعبية ! . . كانوا مجانين المجانين وكان بقية المجانين يتندرون عليهم (تماماً كما يحدث في عالمنا !) .

ومع ذلك ، حين دعا البرفسور لإقامة ندوة أدبية وفكرية مساء كل ثلاثاء وخميس وسبت ، كان يحضرها أكثر من ٨٠ في المئة من المرضى .

ويقول البرفسور بنديك : « هذا يثبت ان الحاجات الروحية ليست مقتصرة على المثقفين » . ويتابع انه لاحظ استمتاع الجميع بقراءة شكسبير وسرفانتيس ودانتي ، « وانني اؤكد ان كلاً من المرضى ، الأغبياء او الأذكياء ، استمتع بذلك ايما استمتاع ، وانها فكرة مضللة تلك التي تزعم ان الثقافة لا تهضمها إلا الصفوة الممتازة . وانما يجب على المرء ان يتعلم كيف يقوم بتوصيلها ، بحيث يتقبلها اي فرد » .

ويقول البروفسور ان « الصحافي المجنون » كان المحاضر المفضل لدى رفاقه نظراً لأسلوبه المشوق . . . وان نجاح الامسيات الأدبية في الجرانج (لا أتخيل ان ما كان يدور فيها يختلف عما يدور في أية أمسية مجنونة اخرى خارج المارستانات وفي المراكز الثقافية !) شجع البروفسور على إقامة امسيات رقص وغناء وموسيقى كانت كلها ناجحة وساهمت في دحر الكآبة من النفوس . . . وحتى « أمير الحزن » صار « أمير الرقص » ، واستيقظت أشواق بعض المريضات الى الحب والفرح . . .

وفي الليل ، بعد أن ينحسر الجميع عن الحقول والندوات ، ويصمت الغناء والبكاء معاً ، كان البروفسور يخرج وزوجته ليتجولا في مملكتهما الاسطورية في ضوء القمر ، مملكة عجيبة تضم ١٩٠ مجنوناً ولكن رعيتها كانت في تزايد مستمر !! . .

اصل الانسان سمكة

ومن تجارب البروفسور بنديك المثيرة علاقة المجنون بالماء .

فمن المفروض ان المجنون يخشى الماء ، وهذا سببه تعذيب المجانين عادة بالماء البارد . . .

لكنه لاحظ إقبال الجميع على بركة السباحة ، وحتى أكثرهم انحطاطاً نفسياً وجسدياً كانت الحياة ترد إليه حين يعود الى الماء .

كأن أصل الإنسان سمكة ! . .

الحب في مملكة الجنون !

وشهدت مملكة الجنون هذه أكثر من قصة حب كانت تساهم في شفاء مجانينها . وقد لاحظ الطبيب أنه حين يكون المعشوق عنيناً كانت تعاود العاشقة الهستيريا والمرض ، ومع ذلك كانت تنشأ علاقات حب عميقة بين المجانين لا تتطرق الى الجنس بل تتجاوزه الى ما ورائه . . . وهذا النوع من العلاقات كان أجمل وأبقى ، وصحياً أكثر .

فالحب العذري يناسب الجنون اكثر من الحب الجنسي !

الصدمة الكهربائية

وسط هذا الجو القصصي المثير ، المشحون بالنماذج الإنسانية ، نمر بمعلومات طبية هامة .

فالبروفسور بنديك يتحدث عن العلاج بالصدمة الكهربائية ويجده ضرورياً شرط تبديل اسلوب تطبيقه . . .

فقد جرت العادة على حمل المرضى بالقوة الى بيوت خلاء المستشفيات حيث يجري ربطهم على ألواح ، ويقسرون على وضع حلقة مطاطية بين اسنانهم يمر خلالها التيار . . . ويراقب بعضهم بعضاً فيرون كيف يتشنج جسد الذي سرت فيه الكهرباء ويتقلص ويبول لا إرادياً ثم يغمى عليه .

يقول البروفسور بنديك ان العلاج بالصدمة ليس مؤلماً لأن الانسان لا يشعر بأي شيء بعد الصدمة ، وان المؤلم في العلاج هو مشهده ، والارغام على خلع الثياب ، وتقييد المرضى وحتى ضربهم ، لإرغامهم على ذلك . وعنف المرضى في تلك الحالات ليس دليلاً على جنونهم بل دليلاً على خوفهم ، أي على وعيهم ! . . وفي « الجرانج » جرى تعديل مهم لهذا العلاج ، وذلك بتخدير المريض أولاً بحقنه بحيث لا يشعر بشيء مطلقاً بعدها . . . ثم يتم كل ما تبقى بهدوء دون أن يعرف المريض أصلاً أن صدمة كهربائية عبرته . . .

ويناقش البروفسور بنديك القائلين بأن لا وقت لتطبيق العلاج الافرادي الكهربائي على المرضى بعد تخديرهم ، فيقول بحدة : « ما الذي يمكن ان يقوله الناس اذا استأصل الجراح في حجرة العمليات ، الزائدة الدودية لمريض دون تخدير، متذرعاً بأنه لم يجد فسحة من الوقت ؟ » الشيء نفسه يجب ان يقال عن الطبيب العقلي الذي يعالج المريض بالصدمة الكهربائية دون تخديره اولاً .

المهم ان نحبهم

الشيء الاساسي في نظرية البروفسور بنديك هو المحبة . إنه يحب المجانين ، وهو بالتالي يراهم بعين جديدة أكثر سبراً لأغوار حقيقتهم . . .

فهو يدافع عن مزارعيه المجانين الذين يعملون في الحقل ويتكلمون وحدهم ، ويقول : « من منا لم يتكلم مع نفسه قط بصوت مرتفع ؟! » الفرق الوحيد هو ان المجانين قد تخلصوا من الضوابط الاجتماعية ، وهم لذلك قد يمارسون الكلام مع أنفسهم حتى أمام الآخرين .

وهو يلاحظ أن المثقفين اصعب من البسطاء حتى في موضوع الاستحمام . فهم لا يقربون الماء ، واذا اغتسلوا بالغوا في ذلك الى حد الاغتسال بثيابهم ! . .

اما السمة المميزة للمريضات ، فهي انهن إما يثرثرن باستمرار (كسيدات المجتمع) ! او لا يتكلمن على الاطلاق !

الثنائية في الجنون

اكثر المصابين بانفصام الشخصية لديهم ثنائية تلفت النظر . . .

هنالك مريض كان يعتقد انه ستالين والقيصر بطرس العاشر في آن واحد !

مريض آخر ، كان يعتقد انه القديس بولس والذئب الشرير في آن واحد . وكان تارة يعظ ، وأخرى يعوي كالذئب !

ولتفسير ذلك يعطينا الطبيب الأديب صورة أدبية ويقول :« إنها تركة قابيل وهابيل في الانسان ! »

اللغات والجنون

يحدثنا البروفسور عن مريض ثالث كان زميلاً له في المدرسة ، وكان من أذكى الطلاب ، وإذا به يأتيه مريضاً . . . وفي البداية دهش بنديك لوجود صديقه في المصح ، فقد كان يناقشه في كل الأمور بذكاء حاد مرهف حتى انه نسي نفسه ذات يوم وسأله : لماذا أنت هنا ؟

قال له الآخر : إنهم يحاولون اغتيالي . يسلطون علي أشعة سرية لقتلي . يسممون طعامي . واكتشف الدكتور بنديك ان الرجل مصاب بعقدة العظمة والاضطهاد في آن واحد . فهو يعتقد ان أي عطل يحدث في المصح (عطل في الكهرباء ـ انقطاع المياه) موجه ضده شخصياً ، وان كل شخص يضع يده في جيبه يحمل في جيبه جهازاً لمراقبته وتسليط الاشعة القاتلة عليه . . . وهكذا يكفي ان تضع يدك في جيبك امامه لينقض عليك (مدافعاً) عن نفسه . . .

ويقول البروفسور ان هذا المريض كان في صغره يميل الى تعلم كل اللغات الممكنة ، كالتركية واليابانية ، وان هذه علامة مرضية كان يجدر به ان يلاحظها .

الحرية ! الحرية !

أجمل ما يؤكد عليه الكتاب ، هو العلاقة بين مرض انفصام الشخصية (شيزوفرانيا) والحنين للحرية .

واننا نجهل جوهر مرض الفصام ، وكيف ولماذا ينشأ عند البعض دون الآخرين وفي ظروف متشابهة مثلاً ، ولكنه يؤكد على ان الفصام في جوهره رغبة مطلقة في الحرية ، رغبة لا حدود لها ، ومن مظاهرها رفض قانون المجموع ، وتطبيق القانون الداخلي الفردي ، دون محاولة تحديد نقاط التقاء بين الفرد والآخرين ، ودون قبول أية تسويات . ومن هنا يلتقي المجنون مع العبقري والثائر والعالم والفنان ، فكلهم يرفض قوانين الاكثرية والامتثال لها ، ويتمرد . . . ولا ينسى الكتاب تذكيرنا بعباقرة العالم الذين كان اكثرهم نصف مجنون او مصاباً بالصرع ، كما انه يستشهد بديستويفسكي وشكسبير لاطلاعنا على جوهر الجنون الذي هو احياناً ذروة الحساسية والوعي (هاملت مثلاً) .

وهكذا يروي لنا البروفسور كيف انه حول مستشفى للمجانين بالمعنى المرعب التقليدي للكلمة الى مصحة للشعراء والفنانين والعشاق والعمال والفلاحين . ووصفه لذلك المكان يشبه « اليوتوبيا » حتى ان الكثيرين منا يتساءلون عن عنوان هذا المكان ليحزموا حقائبهم الى هناك ويرحلوا للعمل والحب والحياة بعيداً عن بشاعة عالمنا المعاصر وجنونه ! . .

والبروفسور يدعو الى انشاء مستعمرات كثيرة من هذا النوع ويتساءل : « أليس في الامكان مساعدة الاصحاء على هذا النحو ؟ » .

البروفسور المجنون

وقد شاعت أخبار مصح « الجرانج » ، وتجربة البروفسور بنديك الرائدة في هذا

المجال ، وتم الاعتراف باهميتها في المحافل العلمية والمؤتمرات ، ودعي هو أكثر من مرة للمحاضرة عنها ، كما بدأ يتدفق عليه الزوار والفضوليون ومراسلو التلفزيونات والاذاعات . . .

وهو هنا يتحدث عن اولئك الناس القادمين الى مملكته من العالم الخارجي ، بسخرية واشمئزاز شبيهين بالاحتقار الذي يتحدث به الناس عن المجانين ! اما حين يتحدث عن رعاياه من « المجانين » فهو يتناولهم بحنان حقيقي وتفهم عميق . . .

وحين تنتهي من هذا الكتاب ستتساءل :

ترى هل هذا البروفسور العبقري هو أكثر رعاياه « جنوناً » ، وهو لذلك يفهمهم ، ويعرف كيف يتخاطب واياهم ؟ . . هل سر نجاحه هو انه مجنون ، بل وأكثرهم جنوناً ؟ ! .

ولكن ما هو الجنون ؟ وما هو العقل ؟ اليس أكثر اطباء العقل نجاحاً هم اقربهم الى الجنون ؟ .

البروفسور لينغ

البروفسور لينغ ، حين يروي تجربته على تخوم الجنون والعقل ، يؤكد ان الطبيب العقلي الناجح يجب ان يكون قد مارس تجربة السقوط الى الداخل (الجنون) والعودة منها كي يساعد بقية شعبه . هل هذا ما حدث للدكتور بنديك بسرية أكبر ؟

وفي رواية « مستشفى المجانين » ، تأليف ويليام جونسون ، نجد بطله الطبيب ، يضيع الخيط الواهي بين عالم الجنون والعقل ، ويصير مثل الناس الذين في الداخل ، والذين نطلق عليهم اسم « مجانين » ، ولكن من العاقل ؟ ومن المجنون ؟ وبالنسبة الى اي مقياس ؟ . .

وهل المجانين هم حقاً ، كما يعتقد الدكتور لينغ ، رواد الكشف عن اعماق النفس البشرية وأهم بكثير من رواد الفضاء ؟ إنهم الضحايا الاولون على مذبح معرفة الذات الانسانية ، وحينما تنضج البشرية ستقوم ببناء انصاب تذكارية لهن ؟

ترى هل يأتي يوم نجد فيه نصباً « للمجنون المجهول » اسوة بـ « الجندي المجهول » ؟ !

لا ادري ! . .

ادبنا العربي . . . الفقير

كل ما أدريه ، هو أن أدبنا العربي يفتقر تماماً الى هذا النوع من الكتابات التي يخطها

الاطباء (الأجانب) . . . وأعني بذلك « الكتابات ـ المذكرات » التي تطرح في أسلوب روائي شيق قضايا جديدة علمية وانسانية في قالب حي من النماذج البشرية التي لا تنسى .

والملاحظ أنّ اطباءنا ، حين يكتبون ، يصرون على كتابة « أدب » بالمعنى السائد. يصرون على كتابة القصة القصيرة او الرواية او الشعر او الحكمة الدينية . (الدكتوران يوسف ادريس ومصطفى محمود،مثلاً ، ينقطعان شبه انقطاع عن عالمهما الطبي . اما الدكتور شريف حتاته ـ وهو لا يزال يمارس مهنة الطب ـ فقد كتب رواية ناجحةيؤ رخ فيها حكايته مع السجن لا مع الطب) .

والسؤال هو لماذا لا يبدأ اطباؤنا فتحاً جديداً في عالم « الكتابة الابداعية » دونما مبالاة بالقوالب الادبية والالقاب ؛(قاص ـ شاعر) ؟

ومتى يغتني أدبنا العربي بهذا النوع الفذ من المذكرات الابداعية العلمية ؟

أم أن هنالك نماذج عربية معاصرة من هذا النوع فاتني الاطلاع عليها ؟

١٥/٧/١٩٧٤

خذوا الشعر من أفواه . . . المجانين

إذا كنت مثلي ، تحس بأن الشعر هو صرخة القلب العاري من الأقنعة ، والنفس العارية من الزيف . . .

اذا كنت مثلي ، تلحظ أن أكثر الشعر حولنا صار مكتوباً بلغة المصالح لا بلغة القلب ، فيه الحكمة والنظريات السياسية والشعارات وحتى الوصفات الطبية والجيولوجيا أيضاً (!) لكنه يخلو من صرخة الاعماق ، صرخة الطفل لحظة الولادة ، صرخة الفجر لحظة الحب ، وكل الصرخات العفوية الاخرى . . .

إذا كنت مثلي تشعر بأن أكثر شعراءنا الكبار صاروا عقلاء جداً ، وشعرهم يفتقر الى لمسة جنون وومضة عبقرية . . .

اذا كنت مثلي تتوق إلى قراءة كلمات نابعة من الأعماق بكل عفويتها وفجاجتها وجراحها العارية من الأربطة ، فليس أمامك إلا أن تفعل مثلي ، وأن تباشر قراءة أشعار المجانين* . . .

لقد أفسد عصرنا الشعراء . افسدتهم السياسة . افسدتهم المصالح . أفسدهم الآخرون . أفسدهم النقاد . أفسدهم التصاقهم بكل ما هو عابر . . . ولكن المجنون يظل خارج السياسة والمصالح والنقاد والآخرين . . . وتظل لاشعاره نكهة البراءة الأولى ، والصدق بلا حدود . فالمجنون إنسان غادر نهائيا عالم الآخرين ليمارس سقوطه البطيء الى قاع ذاته ، وربما ليلمح بين آن وآخر شطآن الحقائق الإنسانية ، وأسرارها النائية ، يقرأ أبجديتها المشوشة عبر ضباب تمزّقه . أليس الجنون ، كما يقول إريك فروم ، هو « العودة الى الداخل » ؟ . .

أليس الإبداع لحظة جنون صغيرة أو ، كما يقول جان كوكتو : « ان يكون الفنان فصامياً صغيراً ، أشبه بالطفل أو بالمجنون ، وليس أمامه سوى العبقرية » ؟ ! .

الشاعر العظيم ـ والناقد أيضا ـ ت . س . إليوت كان يرى أن الشعر الحقيقي هو

* اخترت لكم هذه القصائد من كتاب « الانسان والجنون » تأليف الدكتور استيفان بنديك

خلاصة المعرفة الانسانية ، وأنه بذلك يتجاوز المعارف الأخرى كلها ، ليضيء بالحقائق الأزلية في لحظات نبوءة والتصاق بالمطلق . . .

ولكن أكثر الشعر حولنا بدأ يتحول إلى أداة إصلاحية أو سياسية أو اجتماعية ، ولكونه أصبح أداة ، أخذ يفقد سحر الاعماق ، ولم يبق على عشاق الصوت الداخلي غير المزيف إلا العودة الى الشعر الكلاسيكي . . . أو إلى شعر المجانين !

شعراء . . وليسوا مجانين

والى جولة معي بين أشعار المجانين . . . لنقرأ معا :

هل انا الصياد العجوز
أم تراني البحر ؟
أو لعلني سوار قديم
وجد في خزانة
مفتاحها قد ضاع ؟ . .
يا للظلام ، والحلم الغريب !
هل أنا حزن كئيب ،
هل أنا تساؤ ل كامن ومرعب
يظن أنه يرقد في أعماق حمأة الوحل البارد ؟
أم تراني بئراً مهجورة في الحديقة ؟ . .
يوماً إثر يوم ،
أنا ،
أمير الحزن المسكين
أكتفي بالتمرغ في النواح القاسي الناعم
بينما الدقائق الفارغة
تشكل جسراً يعبر فوقي . .
يا أيها الشفق الاحمر الدموي
والفجر العاصف الموحش
لقد جعلتني أعول وأئن ،
فأنا رهينة
في قبضات اليأس .

هذه القصيدة كتبها مجنون في مصح « الجرانج » في هنغاريا ، وهـو شاب من أسرة ايجليت ، والده كاتب مشهور ، وشقيقه الاصغر أيضا كاتب معروف ، أما هو فقد أصيب برغم موهبته (أو بسببها !) بالفصام ، وأدخل مصحاً عقلياً . كان وسيماً كأمير في رسوم العصور الوسطى ، حالماً ورقيقاً ويلقب نفسه بـ « أمير الحزن » . ولكنه كان يشكو مما يسميه « مرض التقلص الشيطاني » الذي يوجعه ويدنس كل ما حوله . والى جانب الكتابة كان يقضي وقته في مسح كل ما حوله بورق التواليت ، وكان يغتسل طوال الوقت ، ثم يرتدي ثيابه ، ثم يعود الى الاغتسال بثيابه كلها صيفاً وبمعطفه شتاء ، ثم ينهمك بتنظيف فراشه ، فيظل ينثر عليه الماء ويمسحه حتى يسقط اعياء (أليس العالم حولنا قذراً الى هذا الحد ، وكل ذنب « أمير الحزن » أن يلحظ ذلك أكثر منا ، ويحس بمطاردة الموت الاكيدة له ولا يفاجأ بذلك مثلنا ؟)

« أشعر انني سأموت هنا ،
سوف أرقد على الحشائش
وببساطة ،
أموت !
أيتها الحياة ،
يا شعلة الدماء والاشواق
والمثل والاحزان وأطياف الاحلام
أنا أدير لك ظهري
وأغادرك !

*

الطيور تجثم حزينة فوق الاشجار
وتمر الساعات البليدة
خلال ثقوب ساعة الحياة الرملية ! . .
آوه !
ما أشد شوقي الى أن أكون بعيداً . . .
أن أتلاشى بعيداً . . . هذه هي النهاية . »

* * *

سيزار لمبروزو طبيب عقلي ايطالي من القرن الماضي ، كتب مؤلفاً عن العلاقة بين

العبقرية والجنون والجريمة ، وأكد في كتابه « الرجال العباقرة » ، ان جميع الرجال العظام في التاريخ قد عانوا من أحد أنواع الجنون . وأحصى لمبروزو حشداً من عظماء الرجال المصابين بالصرع : دستويفسكي ، يوليوس قيصر ، شارل الخامس ، القيصر بطرس الاكبر ، ريشيليو ، موليير ، فلوبير ، موسيه ، الفيري ، باسكال ، هاندل ، باجانيني ، وغيرهم كثير . . . وحتى لو صح ذلك ، فان هذا لا يعني أن كل مجنون هو حتماً شاعر أو عبقري . . . ومع ذلك ، تظل هنالك رابطة ما ، وقد وعى هذه الرابطة كبار الفنانين أنفسهم . فنظرتهم الى الفصام والمجانين تلفت النظر . . . واليكم هذه الامثلة :

في رواية « الابله » يسوق دستويفسكي ، على لسان هيبوليت مثلاً نموذجياً على التفكير الفصامي « أنا أكرهك يا جافريل لسبب واحد ، وهو أنك تعتبر نموذجاً ، تجسيداً تشخيصاً وجوهراً للعادية الانانية الحقيرة الغادرة الوقحة . أنت تمثل العادية محفوظة حفظاً . أنت العادية الاولمبية التي لا يأتيها الشك . أنت روتين الروتين . لقد قدر عليك ألا يخطر بفؤادك فكرة جديدة » . هل يوجد ما هو أبغض الى المصاب بالفصام من روتين الروتين ؟!

وهذه الابيات تلخص أيضاً رؤ ية الفصامي للاشياء :

« انا مع نفسي
مقياس . . .
كلماتي المنحوتة من الذهب الخالص ،
هي كلمات السرور . . .
على كل قطعة ذهب ،
تتبدى صورتي كصورة ملك . . . .
وفي الأعالي ،
ترى نقش كلمتي المشحونة بالزهر :
انا !! »

وهكذا فالمجنون يريد أن يكون قانوناً في ذاته . جوهر الجنون والفصام ، كما يقول الدكتور « استيفان بنديك » ، هو الحنين الى الحرية . الحرية بمعنى أن يعيش المرء وفقاً لقوانينه الفردية . وقوانين المجتمع تقوم على قوانين الاكثرية ، والقادرون على التكيف معها يلقبون بـ « الاسوياء » ، وهم أكثرية . فالامتثال سهل بالنسبة الى الكثيرين (وتلك ليست بالضرورة شهادة في صالحهم !) وبعض الناس يجدون صعوبة في التكيف ،

وتنتابهم نوبات الكآبة والقلق والرفض لكنهم بالنتيجة يتكيفون على مضض .

بعض الناس يرفض قانون الاكثرية ، ويتمرد ، يصير من الثوار أو من العلماء أو المجددين أو الفنانين . . . أو المجانين !

أما البروفسور لينغ ، في كتابه عن الشيزوفرانيا فيقول : « الجنون هو ثورة الاقلية العاقلة ضد الاكثرية المجنونة في عالم مجنون يمضي الى الدمار » .

وهذا العالم المجنون ، السائر الى الدمار ، قد يكون سر آهات « أمير الحزن » وغيره من الشعراء المجانين . . . وها هو يصرخ باحساس لا بد انه مر في قلوبنا ولو مرة في العمر :

« انفراجة في السماء
حيث السحب الداكنة الغريبة
تتدلى من السموات المحمومة .
زهور الحزن الدموية ، الحمراء العملاقة
ترقبها العيون
الطافحة بالاسرار .
الظباء الصغيرة تعدو
في صمت
وقلوبها تغني أغاني مشرقة للنهار
عن احلامها الصغيرة
بينما الارض الزرقاء
لا تتوعدها الا بالموت والفناء . »

وكان « أمير الحزن » ، « صاحب الدموع الماسية » ، يعتز بألقابه التي يغدقها على نفسه ، ويعتبر نفسه شاعراً عظيماً جداً ـ ومن من الشعراء ؛ حتى العقلاء منهم ، لا يعتبر نفسه شاعراً عظيماً ؟

« قطرات المطر المتساقطة
تقرع الليلة كطبول زنجية .
وفتاة حزينة ،
تختلس النظر عبر المدخل الزجاجي ،
لم تختف في الظلام . . .

سوف يحل الحزن غداً هنا .
الكلمات البالية
لا تستطيع أن تعبر
عن هذا الحزن الغريب الجارف .
الحديقة تبكي
الاكمات والاشجار تبكي .
السلم ، وعتبات الابواب
مغطاة بالدموع
وتتنهد
محاطة ببحر عميق من الاوحال .
أصيخوا السمع ،
تبكيان
الفتاة ، والحديقة ! »

جوهر العذاب الانساني

من منا لم يحس احياناً بأن العالم كله يبكي ، وأن الحزن هو الضيف الثقيل الذي لا سبيل الى طرده والتخلص منه ؟ . .

ولكن اشعار المجانين ليست كلها بكاء على بشاعة العالم ، فبعضها يلخص المأساة الانسانية بفلسفة شاملة ويكشف لنا ان جوهر العذاب الانساني هو توق الفرد للالتصاق بالوجود الواحد ، الكل ، السامي (وهي النظرية التي بنى عليها اريك فروم فلسفته في الحب في كتابه « فن الحب » (The Art of Loving)

وهذه مصابة بالفصام اسمها هيلغا ، تكتب في المصح نفسه « الجرانج » أبياتاً رقيقة كلها جوع للعودة الى الكل الواحد ، الى النبع ، الى الحب والجمال والخير بالمعنى الاغريقي . تقول (المجنونة) هيلغا :

« لم الواحد ؟
اليس الواحد هو الجوهر ؟
لا شيء باقياً مما تراه عيون البشر
الماضي قد توقف
والمستقبل قد مضى .

والسر الآن ـ تكون أو لا تكون .
لم نعيش ؟
الحياة لا تهتم
هل يهم اذا وقفت
أو جلست ؟
فتحت أو اقفلت ؟
من الافضل ألا تحلل
وجودك الخاص . . .
هكذا تقول النكتة الشائعة ! »

وهيلغا تعي جيداً انها مسجونة في مصح للامراض العقلية كالقفص . ولفرط عناية الطبيب بالمرضى ، فالقفص ذهبي لكنه قفص . انهم يطلونه من الداخل بالذهب لكنه يظل قفصاً بلا نوافذ . والقفص ليس الآخرين وحدهم . إنها هي ، بجنونها ، قد تحولت الى قفص مغلق أيضاً . والقفص مزدوج ، والشوق الى الحبيب كبير . . .

تصرخ هيلغا :
« انا احمل قلبك
في راحتي .
انه احمر ودافىء
حين ينقبض ويتمدد . . .
يا طفلي أنا العزيز ، العزيز
لماذا علينا أن نفترق
طفلي ، طفلي ـ يا صاحب القلب الارجواني الجميل !
ذراعاي القويتان ترعيانك :
يا حب أمك . . .
هل يمكن أن تسمع صرخاتي ؟
امك ترقص وتغني وتصرخ
بينما القفص الذهبي والبحر صامتان
أمك والمعاناة ـ نحن الاثنين ـ
وضعونا في القفص الذهبي

والقوا بنا في الدوامة .
وقلبك الارجواني يا طفلي
يمكن أن يرقب ذلك من الخارج ،
وتصرخ أنت ،
أنت ايضا تصرخ ،
ولكن عبثاً تذهب صرخاتك ،
فأنت لا يمكن ان تدخل
فالقفص الذهبي بلا أبواب
أو نوافذ ،
بلا عيون أو آذان ،
جامد .
استحال جامداً .
يا زهرتي المحطمة
يا ظلال ربيعي
يا حبي العذري ،
المحتجزون خلف هذه الجدران
استمع اليهم ، فأصرخ
ويجلجل صوتي :
استرخي ! استرخي !
وحلي عقد عذابك العقلي
وانتظري .
فلننتظر . وننتظر . وننتظر !
الا ترين فراش العرس الجميل
مرتفعاً نحو السماء ؟
المصحة المغلقة هي موت الجمال
لأن الجمال يموت
ويظل ميتاً
حين نكف عن أن نرويه

بالدموع وبفيض الحب .
دعنا نفك القيود
ونتحرر من الاربطة
ولنصهر بالنار
كل شيء . . .
فلا يعود هناك هو
ويظل الغريب فقط . . . أنا . »

وبعض أشعار المجانين ترسم صورة مذهلة لمرض الشيزوفرانيا (انفصام الشخصية وتعددها) . وقد كتب احدهم :

« أنت لا تعرف إلا غريزة واحدة
فحذار
ان تلقى الأخرى على الاطلاق !
ثمة روحان في صدري
واحداهما سوف تطلق الأخرى . . . »

وكتب آخر :

« هل اصبحت شبحاً
يزور مملكته ؟
أنا أرقب في ضعف
وصبر وهدوء
واسأل في دهش :
أما زلت أنا نفسي ،
أم احتل ذلك الآخر مكاني ؟ »

صرخات . . . صرخات

وكتب مجنون قرأ في احد الكتب أن الجنون يمكن أن يكون وراثياً ـ وكان له فيما يبدو جد مجنون :

« تعلمت في المساء ،
في احدى القرى
في حجرة صغيرة ، مع التنهدات ،

ان جدي هو السيد
سلفي السكير ، لا أنا . . .
أعرف الآن
ان جدي يضطهدني ،
رغم انه مات .
ويحدق فيَّ بعينين زجاجيتين
ويرقص على قمة رأسي . . .
وحين الوحش المفترس ،
ذو الصرخة الطويلة الحادة ،
يجعلني انطلق في وهدة الليل
فإنه جدي ، وليس . . . أنا
والآن ، سأقول ما أعرفه أنا بمفردي
اذا هاجمني مرة اخرى معولاً
فلن أستطيع أن أصارع ،
من هو أنا !
لذلك ،
فانا أكتب أشعاري على الماء . »

ولكن هل هو وحده الذي يكتب أشعاره فوق الماء ؟ أليست الحياة كلها سطوراً فوق الماء أو رسوماً على رمل الشاطىء ؟!.

لقد كتب أحد الشعراء المجانين هذه الصرخة :

« واضحة وضوح النهار ،
ـ وعباءة الليل السوداء ،
هي حالتي .
فجنياتي تتهددني بالفناء
« لاذاتي » تعذبني في الليل والنهار
ولا استطيع دفع المعاناة
ما دامت قدري
ثمة ذات ثانية في داخلي ،